تاريخ بلد قسنطينة

للشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار (1790-1870)

تحقيق وتعليق وتقديم

عبد الله حمادي



دار الفائز للطباعة و النشر و التوزيع

تاريخ بلد قسنطينة

للشيخ الحاج أحمد بن المبارك

تاريخ بلد قسنطينة

للشيخ الحاج أحمد بن المبارك

تحقيق وتقديم وتعليق عبد الله حمادي

الطبعة الجديدة 2011

قسنطينة

عنوان الكتاب: تاريخ بلد قسنطينة للشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار

تحقيق وتقديم وتعليق: الأستاذ الدكتور عبد الله حمادي

الناشر: دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع

سنة النشر: قسنطينة 2011

الحجم: 16x24

عدد الصفحات: 170

تمت الطباعة والتصفيف بمطبعة الفائز

ه/فاكس: 91-48-90-031-213

تقديم الطبعة الجديدة

لكتاب " تاريخ بلد قسنطينة " لابن العطار

1 - تعريف بالشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار

هو أحمد بن عمر بن أحمد بن محمد بن العطار عرف بكنية القسنطيني بسبب أصوله غير القسنطينية، كما عرف عادة باسم الشيخ الحاج أحمد بن المبارك.

قضى ابن المبارك معظم حياته بقسنطينة التي ولد فيها عام 1790 وفي سنّ مبكرة من حياته انتقل إلى مدينة ميلة التي لا تبعد كثيرا عن مدينة قسنطينة فتلقى فيها مبادئ العربية في زاوية أسرته المعروفة بعائلة ابن العطار المنتمية في أصولها إلى تلك الناحية، ثمّ عاد وهو في سن الصبا إلى مسقط رأسه قسنطينة واستقرّ بها إلى أن وافته المنية عام 1870.

شرع أحمد بن العطار بقسنطينة في مزاولة التعلّم بمساجدها على يد أعلام قسنطينة آنذاك من أمثال الشيخ العلاّمة أبو راشد عمّار الرّاشدي المعروف بالغربي والذي كان أديبا له الباع الطويل كما يقول الحفناوي في المعقول والمنقول وشاعرا مجيدا، ولي الفتوى المالكية والخطابة بسيدي على بن مخلوف والتدريس بمدرسة سيدي الكتّاني ثمّ

جامع القصبة له تآليف من أبرزها:"حاشية على الشيخ إبراهيم الشبرخيتي شارح المختصر"، وتوفي بقسنطينة في جمادى الثانية 1251 هجرية، كما تتلمذ على يد الشيخ أبو منصور عمّار الشريف القسنطيني الذي كما يقول عنه الحفناوي كان نخبة قسنطينة ودرّة أعيانها، فقيها أديبا بيانيا مشاركا في جميع الفنون أخذ عنه الونيسي الأصغر والميلي، وتقلد نظارة الأوقاف والقضاء مرّتين، والخطابة بجامع رحبة الصوف، وتوفي رحمه الله في سنة 1241 هجرية، كما تلقى التعليم على يد الشيخ العلاّمة أبي عبد الله محمد العربي بن عيسى القسنطيني الذي كان من جِلّة العلماء، وأفاضل البلد، أخذ عن العباسي، والطلحي، وولي النّظر على الأوقاف والقضاء والتدريس بمسجد سيدي جليس، وتوفي رحمه الله سنة 1254 هجرية. كما كان لابن العطار الحظ في التلقّي على شيخ الشيوخ أحمد بن سعيد العبّاسي الذي كان آية زمنه حفظا وإتقانا وبيانا في علم البلاغة والبيان، عارفا برجال الحديث وعلله ،له اليد الطولى كما يقول الحفناوي في فنّ المنطق والكلام والعلوم الإلهية، وعالما كذلك بالقراءات السبع، ومتمكنا من أدب المناظرة، ولي بدوره النظر في الأوقاف، ثمّ القضاء مرّتين، والخطابة بسيدي علي بن مخلوف، ثمّ بمسجد رحبة الصوف وترك العديد من المؤلفات من بينها "تقاييد على صحيح مسلم ومصنفات أخرى.

لمّا بلغ ابن العطار مرحلة الشبيبة والنضج الفكري انتقل لممارسة التجارة في الحرير والعطور حِرفة آبائه وأجداده وهو ما مهّد له سبيل التنقّل في البلاد وخارجها، فكانت رحلاته الأولى خارج الجزائر إلى القطر التونسي الذي عادة ما كان محطّ رحال التجار القسنطينيين كما حدّثنا الرحّالة الحسن الوزان المعروف بكنية ليون الإفريقي.

كانت رحلات ابن العطار إلى أسواق تونس يهتمّ فيها بالتجارة في عمائم الحرير وكذلك أطايب مختلف أنواع العطور، ولعلّ لقب عائلته قد وصل إليهم من حِرفة جدّهم الأول لأنّنا كثيرا ما نجد في كتب الأنساب العربية أو البربرية من انتحل لقبا لعائلته من حرفته وبالتّالي فبنو العطار يمكن أن يكون لقبهم قد علِق بأسرتهم من احتراف عائلة المؤرخ ابن العطار لتجارة العطور وتوارثت ذلك كابرا عن كابر.

لقد مكنت حرفة التجارة للمؤرخ ابن العطار من التردّد أثناء زياراته لتونس على جامع الزيتونة المعمور والاستفادة من حلقات الدروس التي كانت تلقى فيه وعلى وجه الخصوص حلقات العلوم الشرعية واللغوية ،كما تمكن ابن العطار من تمتين هذه المعارف أثناء أدائه لفريضة الحجّ فوسع خلالها من مداركه في علوم الشّرع واللغة وهو ما مهّد له السبيل لتولّي منصب التدريس بالجامع الكبير خلفا

لشيخه العبّاسي الذي وافته المنية سنة 1251 هجرية فشرع في تلقين العامة والخاصة العلوم الإسلامية، مع إعطاء محاضرات عامة ومتنوعة في مختلف المعارف المرغوبة آنذاك وهو ما جعله ينال شهرة ويصبح من أقطاب العلماء البارزين بقسنطينة الأمر الذي رشّحه لتولِّي منصب الفتوى خلفا لمفتي قسنطينة الشيخ محمد العنّابي، وبالإضافة إلى هذا التشريف تمّ تعيينه مستشارا في المجلس الشرعي الإسلامي المحلّي الذي كان ينعقد دوريا بمدينة قسنطينة.

خلال هذه المرحلة التي بلغ فيها نشاط الشيخ ابن العطار أوج العطاء أقدم على تأليف جملة من الكتب القيّمة من بينها "تاريخ بلد قسنطينة" الذي نحن بصدد تقديمه إلى القراء في حلّة تليق بمقامه، وكذلك حاشية على منظومة "الجوهر المكنون في الثلاثة فنون: المعاني والبيان والبديع للأخضري دفين زاوية بنطيوس من قرى بسكرة " في جزئين وكتاب "سُلم الوصول في الصلاة على الرسول" مع تأليفه لسلسلة عن طريقة الشيخ الزواوي مولى الطريقة الحنصالية بقسنطينة سمّاها"نصيحة الإخوان في أصول التربية وآداب السلوك"وقد تولى شرحها والتعليق عليها الشيخ صالح بن مهنّا رحمه الله وهي مطبوعة ومتداولة بين أيدي المريدين ،وقد أثنى شيخه العباسي على هذا الأثر، كما نظم مطولة في مدح الرسول (ص).

عرف عن الشيخ ابن العطار انتماءه الروحي إلى الطريقة الحنصالية التى عرفت بقسنطينة وتنسب إلى مؤسسها الشيخ يوسف الحنصالي المعروف في نواحي قسنطينة فكانت له مكانة مرموقة في أوساطها حيث يحظى بالتقدير والاحترام بين الجميع إلى درجة ظل بيته فيها ملجأ لمن يقصده بحثا عن الأمان والبركات، وتقول المصادر أنه يعود إليه الفضل في تأسيس الطريقة الحنصالية والتي اشتق -ربما- اسمها من اسمه وتعتبر هذه الطريقة أحد فروع الطريقة الشاذلية، كما يقال أنّ لها علاقة بالطريقة الرحمانية، وأشهر رجالات هذه الطريقة بقسنطينة وضواحيها الشيخ أحمد الزواوي الحسني الذي كانت له مع صالح باي مواقف ذكرها العنتري في تاريخه، وكما يقول الحفناوي بلغ ابن العطار منزلة في هذه الطريقة أن "أسندت لعهدته رئاسة الطريقة الشاذلية فساسها على متون الشريعة وهذّبها بنصائحه المفيدة" ولمّا توفي كان له الشرف العظيم أن يسجى في مدافن زاوية شيخ الطريقة على مقربة من مرقد إمامها الشيخ الزواوي الكائن بجبل شطّابة المُطلِ على شمال مدينة قسنطينة.

كان للشيخ عاشور الفضل والسبق في تسجيل تاريخ وفاة هذا العلامة في قصيدة من نظمه نقشت على قبر ابن العطار وما تزال شاهد إثبات إلى يومنا هذا حيث سجّل فيها تاريخ وفاة الشيخ ابن العطار التي كانت يوم الثلاثاء الأول

من شهر رجب عام 1287 هجرية الموافق ليوم خمسة أكتوبر 1870 ميلادية.

ذكر كلّ من Depont et Coppolani في كتابهما "Les Confréries réligieuses musulmane" أنّ لابن المبارك ولدا كان ينتمي بدوره إلى الطريقة الحنصالية وقد كان له الشرف أن يحظى برتبة "مُقدّم" عام 1879 وقد نال هذا التشريف من طرف شيخ الطريقة آنذاك الشيخ بلقاسم بوحجر ابن الشيخ حمو بن الزواوي وصاحب الزاوية المعروفة في بلدة سيقوس جنوب قسنطينة والذي كان صديقا حميما للشيخ ابن المبارك. كما ورد أيضا ذكر لحفيد ابن المبارك قد تقلد بدوره رتبة مُقدّم في الزاوية الحنصالية.

2 ـ مرتكزاتنا العلمية في هذا التحقيق

لا شك أن تاريخ قسنطينة لابن المبارك لا يعرفه إلاّ القليل من الباحثين بالجزائر وأقلّ منه ربّما عدد المثقفين ويرجع ذلك إلى ندرة طبعة هذا الكتاب الذي يكاد يكون مفقودا، فأوّل من بعثه إلى النور كان الأستاذ الفاضل نورالدين عبد القادر المدرس بالمدرسة الثانوية الفرنساوية الإسلامية بالجزائر عام 1952 حيث أخرجه في طبعة متواضعة، وكان جهده يتلخّص في نقل النصّ من مخطوطة لم يذكر مكانها مع اعتماده الكلّي على بعض التعاليق التي

أوردها مترجم تاريخ ابن العطار، الفرنسي Alfred Dournon والذي نشره في المجلة الإفريقية Revue Africaine Vol.57 Alger 1913 من صفحة 268 إلى 305، ومن هناك فإنّ ما أورده الأستاذ نور الدين عبد القادر من تعليق ومعلومات حول ابن العطار مصدره الترجمة السالفة الذكر والمنشورة في المجلة الإفريقية.

أمّا التحقيق الثاني فهو من إنجاز الباحث الجزائري الأستاذ رابح بونار والذي لا ينكر استفادته من جهد الأستاذ نور الدين عبد القادر وما ورد في المجلة الإفريقية، كما يضيف أنّ اعتماده في التحقيق كان على مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية ومخطوط مكتبة الرباط بالمغرب لكن بعد التمعّن في جهد الأستاذ رابح بونار فإنّنا لا نجد جديدا يميّزه عن طبعة الأستاذ نورالدين عبد القادر ما عدا بعض التعليقات التي ترشح من ثقافة رابح بونار. من هناك حرصت في هذه الطبعة الجديدة على إعادة نشر المقدّمتين لكلّ من طبعة 1952 وطبعة 1971 حتّى يتسنّى للباحث والمثقف الاطلاع عما ورد في مقدمة الطبعتين وبالتالي نختصر أمامه مسافة العودة إلى الطبعتين اللتين تعتبران اليوم في حكم المفقود تقريبا.

أمّا اعتمادنا الثالث، والأهم فهو العودة إلى مخطوط تاريخ ابن العطار الموجود في المكتبة الوطنية الجزائرية

القديمة حيث توجد نسخة ضمن ملف ضمّ مخطوطات أخرى وتقع تحت رقم:1645 وتمتدّ من الصفحة الأولى إلى الثلاثين،مع وجود ترجمة الشيخ فتح الله وقضية أحمد القبايلي. ما يميز هذه المخطوطة النادرة هو خطها الواضح وذكر تاريخ نسخها الذي يعود إلى زمن المؤلف حيث جاء تاريخ النسخ في عام 1852 وهو التاريخ الذي أشار إليه ابن العطار، كما يظهر جليا العنوان الأصلي لتاريخ ابن العطار وهو ما أثبتناه على غلاف هذا الكتاب مع الإشارة أن العنوان المذكور على تحقيق الأستاذ نورالدين عبد القادر والأستاذ رابح بونار هو من اجتهادهما الخاص.

لكن ما يلفت الانتباه أثناء العودة إلى المجلة الإفريقية في مجلّدها رقم:57 الصادر عام 1913 هو ما ورد في مُفتتح العرض الموجز لتاريخ قسنطينة لابن العطار وكذلك لتاريخ العنتري من إشارة لتأخر ترجمة تاريخ ابن العطار إلى سنة 1913 ولهذا لم يعتمد عليه المؤرخان الفرنسيان E.Vayssetes و Ernest Mercier الأول في كتابه" Histoire de Constantine sous les Beys (1535-1837) publiée a Constantine en 1865. والثاني في كتابه" Histoire de Constantine publiée a Constantine en 1903".

كما وجدت عند A.Dournon مترجم كتاب تاريخ قسنطينة لابن العطار إشارة تفيد أنه اعتمد في ترجمته لكتاب ابن العطار على مخطوطتين: واحدة كانت بالمكتبة

الوطنية بالجزائر والثانية كانت توجد بالمدرسة La Medersa، وأنّ ما ورد من ذكر في آخر كتاب ابن العطار للشيخ فتح الله وثورة أحمد القبائلي لا توجد في مخطوطة المدرسة بل هي موجودة ضمن مخطوط المكتبة الوطنية دون ذكر مؤلفها، وورود أخبارهما ربما جاء عرضا ضمن أوراق الملف الذي يضم تاريخ ابن العطار.

ونستخلص من كلّ هذا أنّ تاريخ قسنطينة لابن العطار توجد منه ثلاث مخطوطات، ويمكن أن يكون أكثر لأنّه من غير المعقول أن لا تحتفظ قسنطينة بنسخة من هذا الأثر الذي يعتني بتاريخها، ومؤلفه من سكانها...؟

لقد أردت في هذه الطبعة الجديدة أن لا أتوقف عند جهود كلٍ من الأستاذ نور الدين عبد القادر والأستاذ رابح بونار والمترجم الفريد دورون، بل بذلت قصارى جهدي حتّى أجعل من هذا الكتاب نسخة مقروءة ومُقربّة إلى الفهم، وذلك بما أضفته من هوامش وشروح وتمحيص رأيت أنّها ضرورية بالنسبة لكتاب يسعى للتوغّل في تاريخ أمّ الحواضر قسنطينة، مع التقديم الضافي لما يتطلبه المقام في حضرة مدينة تجاوز عمرها آلاف القرون وذلك حتّى ينهل المتعطش لمعرفة أسرار قسنطينة بكلّ ما يثلج صدره من معلومات متناثرة في مظان المصادر القديمة والحديثة والتي

يبقى الجهد الإنساني أمام اتساعها قاصرا على حصرها مهما أوتي من الإحاطة والعرفان.

إنّ قسنطينة المدينة والحضارة والتاريخ تحتاج إلى أكثر من جهد، فهي متشعبة ضمن حقول معرفية متنوعة، فهي حاضرة في الأدب بشقيه الشعري والسردي، وحاضرة في الفنون بشقيها الموسيقي والتشكيلي، وحاضرة في التاريخ بشقيه الثابت والمتحرّك، وحاضرة في الوجدان بشقيه العاطفي والعنيف، وحاضرة في الأرض بشقيها المتوغل في أعماق الصخر والمنحوت على ذاكرة الزمان، فهي الماضي والحاضر والمستقبل وما رَسَمَ الإنسان على أديمها وصخورها..

عبد الله حمادي

قسنطينة /فبراير/ 2011

مقدمة الأستاذ عبد الله حمادي

- قسنطينة في ذاكرة النصوص التراثية

أ - قسنطينة المدينة النص

يقول مؤرخ قسنطينة الشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطّار: "سألني بعض المحبين رزقني الله وإيّاهم خير الدّارين أن أقيِّد له بعض أخبار قسنطينة فأجبته بقصور عن إدراك هذا المرام لعدم وقوفي على تاريخ لها لأحد العلماء الأعلام... فأقول: اختلفت الأقوال فمن بناها. فقيل بناها قسطنطين الذي بنى القسطنطينية العظمى التي اسمها اليوم إسلانبول وهي المسماة بلغتنا اصطنبول، وقيل بناها عامل على وطن إفريقيا... والصّحيح أنّها مدينة قديمة بناها الذي بنى مدينة قرطجنة، بنيت في زمن عاد قبل إبراهيم الخليل عليه السلام. يشهد لهذا القول أنّنا نسمع من أهل العلم أنّ قسنطينة من زمن إبراهيم وهي عامرة لم تطفأ لها نار ولا دخلها عدوّ قهرا"[1]؛ إنّ هذا النص يبرز صعوبة البحث في تاريخ مدينة قسنطينة، بالإضافة إلى إقرار بالقصور عن إدراك هذا المرام وذلك لعدم توفّر الوثائق الشافية التي

1- الحاج أحمد المبارك: تاريخ حاضرة قسنطينة. اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه نور الدين عبد القادر. الجزائر. 1952. ص3. وكذلك الأستاذ رابح بونار 1971.

تستطيع الكشف عن خبايا وأسرار مدينة عريقة عتيقة كقسنطينة. فقد ورد في هذا النصّ ذكر قسطنطين قيصر الروم الذي حكم ما بين 306م إلى 337م، وهو الذي اعتنق الديانة المسيحية عام 313م، وما اقتران اسم قسنطينة به إلاّ لأنّه باعث مجدها ومجدّد عروشها وأركانها وكانت قبل مجيئه تُعرف بتسمية أخرى.

ذكر الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري: "أنّ قسنطينة أصلها لقبائل كُتامة، وقد دخلها الفينيقيون ملوك الشام من كولونية لما خرجوا إلى إفريقية من صور سنة 836ق.م واسمها في القديم سيرتا وكانت عاصمة أدربال النُوميدي سنة أربعمائة وثمان وعشرين بعد المسيح واستولى على تلك النواحي الوندال من إسبانيا ولم يزل ملكهم فيها إلى أن استولى عليها المسلمون"(1).

ونحن نعلم من خلال بعض المصادر التاريخية القديمة أن الفينيقيين بدءوا في التوسّع غربا في حدود القرن 12 ق.م وهو ما يدلّ على بداية علاقة مبكرة بين الفينيقيين ونوميديا، كما كانت لهذه الأخيرة علاقة تماس مع الحضارة الإغريقية منذ القرن7 ق.م إلاّ أنّ علاقة نوميديا الثقافية والسياسية والاجتماعية كانت أوسع وأمتن مع

1- الأمير محمد عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. شرح وتعليق د. ممدوح حقي. دار اليقظة العربية. بيروت. الطبعة الثالثة. 1964. ص: 20.

البونيين الذين أسّسوا قرطاج في حدود 814ق.م وهو ما يجعل التخمين يأنس إلى احتمال أن يكون البونيون هم من أطلق اسم "قِرطة" على قسنطينة بعد تحريفهم -ربما- لاسمها اللّوبي القديم، وأوّل مؤرخ ذكر بعد هذه التواريخ هو الروماني Polybe (225-210ق.م) الذي تحدّث عنها كمدينة فاخرة وثرية، وهذا المؤرخ كان على علاقة متينة بماسينسا ويبدو أنّه كان عمدته في مروياته عن مدينة قسنطينة. كما تحدّث عنها المؤرخ Strabon (58ق.م-25م)[1]. ونجد بعض المصادر تذكر أنّ قسنطينة أصبحت عاصمة لماسينسا ما بين 206 و203 ق.م. وقد عثر بواسطة الحفريات على قطعة برنزية كتب عليها الأحرف الأربعة التالية: (ك،ر،ت،ن)، أي "كِرتن" وتعني المدينة. لكن قبل أن تصبح عاصمة لماسينيسا فإنّها لاشك كانت مدينة عامرة وفاخرة في عهد والده غايا وربمّا من قبله، إلاّ أنّ ندرة المصادر وبخاصة العربية الإسلامية من مثل: تاريخ قسنطينة للحاج مصطفى بن جلول، وتاريخ محمد البابوري، وتاريخ مدينة قسنطينة لعلي بن ابراهيم المريني، وكذلك نزهة الحادي للشيخ بوراس المعسكري، والتّحديث والتأنيس في الاجتماع بابن باديس لأحمد بابا التنبكتي، وكذلك كتاب الإشارة في معرفة الزيارة لأبي الحسن علي بن أبي بكر المعروف بالهروي وغيرها من المصادر التي ضاعت، أو هي

1- سلوست: حرب يوغرطة. جمع محمد التازي مسعود. فاس. 1979. ص 3-4.

قيد الاحتباس تجعلنا لا نقع على حبل التواصل الذي يربط بين أطراف تاريخ قسنطينة... هذه المدينة التي كانت مأهولة في عصور ما قبل التاريخ ويشهد على ذلك كهوفها ومغاراتها التي كانت مأوى للإنسان البدائي والحيوان المتوحش. لكنّنا نجد أنفسنا نفتقر للمادة التاريخية الضرورية أيضا، والتي تربط ما بعد عصر يوغرطة إلى بدايات الفتح العربي الإسلامي فهذه الفترة التي تناهز الستة قرون تبقى بدورها حلقة مفقودة ما أحوج الباحثين في علم الآثار والتاريخ إلى التوغّل في أعماقها علّهم يكشفون عن أسرارها ومفاتنها. لكن ما إن نعبر إلى العهد الإسلامي حتى نجد الأستاذ محمد المهدي بن علي شُغيب يقول في كتابه "أمّ الحواضر في الماضي والحاضر" المنشور بمطبعة البعث، قسنطينة، عام 1980: "لم نر من المؤرخين من تحدّث عن موقف قسنطينة من جيوش الفتح الإسلامي، والدور الذي كان لها في أيام الفتوحات العربية الإسلامية بإفريقية... إلخ"[1]. هذا حكم نراه غير صحيح، ويبدو أن الأستاذ المذكور لم يبحث جيِّدا في مظان الكتب التاريخية، لأنّ أوّل مؤرخ عربي تحدث عن فتوح شمال إفريقيا لم يهمل الحديث عن قسنطينة، وهي المدينة ذات الشهرة والعراقة والمناعة؛ فالمؤرخ الواقدي في كتابه "فتوح إفريقية" – وهو من

1- محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر – تاريخ قسنطينة -. مطبعة البعث. قسنطينة. الجزائر. 1400هـ/ 1980م. ص94.

التّابعين، ومن رجالات القرن الثاني الهجري الثّامن الميلادي - هو أوّل من أشار حسب علمي إلى مدينة قسنطينة، وقد خصّها في الجزء الأول من كتابه بذكر يمتدّ من صفحة 115 إلى الصفحة 121 يتعرض فيها إلى الكيفية التي تمّ بموجبها فتح مدينة قسنطينة على يد قائد الفتح الإسلامي عقبة بن نافع؛ فأول إشارة للواقدي عن قسنطينة كانت تدلّ على مناعتها، فيذكر الحوار الذي دار بين سكان مدينة قسنطينة والفاتح عقبة بن نافع: "... فقالوا له أيّها الملك أنت تعلم أنّ ما في الأرض الخضراء أحصن من بلادنا ولا أقوى منّا رجالا ومالا، وليس لنا إلاّ أن نتحصّن في بلدنا ونترك العرب ولا نقاتلهم أبدا"[1]. فهي شهادة على مناعة قسنطينة وحصانتها نظرا لما تتميّز به من موقع جغرافي فريد من نوعه، كما أنّه أشار إلى خصلتين ستظلّان سمة مميزة لسكان قسنطينة ويتردد ذكرهما في معظم المصادر التي تتعرض لقسنطينة بالذكر، وهما: شجاعة الرجال ووفرة المال... ثمّ يواصل الإمام الواقدي واصفا كيف تمت عملية الفتح قائلا: "ولما كان الصبح أشرقت عليهم رايات المسلمين ممّا يلي صومعة هناك، وبعد قليل نزلوا إلى المدينة من فوقها ومن تحتها وكانت حصينة منيعة جدّاً"[2]. ثمّ يواصل الواقدي واصفا المدينة المنيعة ليقول: "وكانت

1- الإمام العلامة سيدي محمد الواقدي: فتوح إفريقية. مطبعة المنار. تونس. ص115.

2- المصدر نفسه. ص115.

توجد بها قنطرة، ويوجد باب يسمى باب سيطارج "[1]، ويختم قوله: "وبنى مسجدا بقسنطينة التي دخلها سلما وصلى فيها عقبة أول جمعة... وترك فيها أول قاض، وهو ظافر بن حسّان السّلمي"[2]. فهكذا يحدِّد لنا الواقدي كأقدم وثيقة تاريخية عربية إسلامية الكيفية التي تمّ بها فتح قسنطينة، مع ذكر الفاتح الذي يقول بعضهم إنّه عقبة الجُهنّي، وأوّل قاض تولّى هذا المنصب في تاريخ قسنطينة الإسلامية....

ولا يتوقّف الأمر عند هذا النص التّاريخي الوحيد، بل نجد ابن أبي العرب صاحب كتاب "طبقات علماء إفريقية" يذكر "أن أبا معمر عباد بن عبد الصمد التميمي من أهل البصرة قدمَ القيروان، وكان قد لقي أنس بن مالك والحسن البصري وغيرهما، وأخذ عنه ناس كثير من أهل طرابلس والقيروان، وخرج إلى قسنطينة فمات بها، وذلك في حدود 213هـ (أي في حدود 830م) وهو من التابعين"[3]. إذن فمن خلال بعض المصادر نتمكن من معرفة أسماء بعض الشخصيات التاريخية التي ارتبط اسمها بقسنطينة منذ بداية الفتح الإسلامي وحتّى بعد ذلك يحدثنا ياقوت الحموي عن

1- المصدر نفسه. ص 115.

2- المصدر نفسه. ص 115.

3- المصدر نفسه. ص 115.

أحد أعلامها قائلا: "ومن قسنطينة وإليها ينسب علي بن أبي القاسم محمد أبو الحسن التِّميمي المغربي القسنطيني المتكلِّم الأشعري، قدم دمشق وسمع بها صحيح البخاري من الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسي وخرج إلى العراق وقرأ على أبي عبد الله محمد بن عتيق القيرواني ولقي الأئمة ثم عاد إلى دمشق وأكرمه رئيسها أبو داوود المضرج بن الصوفي، وما أظنه روى شيئا من الحديث لكن قرأ عليه بعض كتب الأصول، وكان يذكر عنه أنه كان يعمل كيمياء الفضَّة، ورأيت له تصنيفا في الأصول سمَّاه كتاب "تنزيه الإله وكشف فضائح المشبِّهة الحشوية" وتوفي بدمشق الثامن عشر رمضان سنة 519هـ"[1].

ولما ننتقل إلى نوع آخر من المصادر ككتب الرحلات فإنَّنا نعثر على وصف طريف ودقيق لتفاصيل مدينة قسنطينة، ولعلَّ أول نصّ شامل هو للرحَّالة البِكْري صاحب كتاب "المسالك والممالك"، والمتوفى عام 487هـ، أي من رجالات القرن الحادي عشر الميلادي؛ فيقول البكري واصفا قسنطينة: "وهي مدينة أولية كبيرة آهلة ذات حصانة ومَنَعة ليس يعرف أحصن منها، وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن، قد أحاطت بها، تخرج من عيون تعرف بعيون

1- ياقوت الحموي: معجم البلدان. نشر دار صادر ودار بيروت. سنة 1977. المجلد الرابع. ص 349.

"أشقار" تفسيره سود، وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر متناهي البعد، قد عقد في أسفله قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا، ثمَّ بني فوقهن بيت ساوى حافتي الخندق يعبر عليه إلى المدينة، ويظهر الماء في قعر هذا الوادي من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده، ويسمى هذا البيت "العبور" لأنَّه مُعلَّق في الهواء"[1].

فالبِكْري أضاف معلومات جديدة عن قسنطينة أكثر دقَّة وأكثر تحديدا، لأنَّ الأمر يتعلَّق بمُعاينة ومشاهدة حقيقية للمكان – أو لعلَّه قرأه في بعض المصنَّفات -: ثلاثة أنهار تجري فيها السفِن، تنبع من عيون تُسمى أشقار، وقناطر ثلاث فوق بعضها البعض، وبيت العُبور الأوحد، كلّ هذا كان في القرن الحادي عشر الميلادي أيَّام كانت قسنطينة تحت حكم الأغالبة.

ولمـــا ننتقل مع الرحَّالة الإدريسي المتوفى سنة 590هـ/ القرن الثاني عشر الميلادي، وصاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" فإنَّنا نجده يقول عنها: "إنها مدينة على قطعة جبل مُربَّع فيه بعض الاستدارة لا يُتوصَّل إليها من مكان إلاَّ من جهة باب غربيها ليس بكثير السعة، ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها.

1- البكري: المسالك ص:63.

وأراضيها كلها حجر صلد، وهي من أحصن بلاد الله"[1].
ويقول إنّها بلدة الهواء والهوى، ويقصد الرياح التي تخفق فيها وتعصف عليها من كل جانب لارتفاعها، وكذلك منظرها العجيب الجذّاب مع شلاّلات واديها وما يحيط بها من حاماتها وجبالها، لعلّها المقصودة بقوله: تجلب الهواء والهوى لسكانها (من حيث يدرون أو لا يدرون). فالإدريسي هو أوّل رحّالة أطلق عليها تسمية بلد الهواء، وربّما كان شاعر قسنطينة الفحل ابن الخلوف القسنطيني شاعر الدولة الحفصية المولود بقسنطينة عام 829هـ/ 1425م هو أوّل شاعر أدخل هذه الصفة إلى الشّعر، ثمّ توالى ورودها في قصائد الشعراء المعجبين بقسنطينة، فابن الخلوف يقول واصفا الجيوش الحفصية وهي تَفِدُ على قسنطينة:

وسـار وسارت خلفـه وأمامـه
نجائب تخطو تحتهنّ النّجائب
ومن تونس وفّت قسنطينة الهوى
لتسعِ ليالٍ خيلُـه والركائب[2]

1- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص:108.

2- د. عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القدم. دار البعث. قسنطينة. الجزائر. 1986. ص 116.

كما يُسجِل لنا الإدريسي، ولأوِل مرّة، الصفة الأخرى التي ستظل عالقة بقسنطينة، وهي استدارة النّهر وإحاطته بقسنطينة كاستدارة العقد بالمعصم.

أمّا الرحالة العبدري صاحب "الرحلّة المغربية"، وهو من رجالات القرن الثالث عشر الميلادي، فقد تعرّض لقسنطينة في رحلته ابتداء من صفحة 28 إلى غاية الصفحة33. لكن وقفة العبدري البلنسي السليط اللّسان ربّما كانت فاتحة لأقوال لاذعة في حق قسنطينة[1] قد شنّها من بعده كلّ من ليون الإفريقي وعبد الكريم بن الفكون في "محدِّد السنان"، ثمّ الورتلاني في رحلته "نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار".

فالعبدري البلنسي الأديب نجده يبادر بوصفه لقسنطينة قائلا: "هي مدينة عجيبة حصينة، غير أنها لخطوب الزمان مستكينة، قد ذبلت ببوارح الخير وفوادح الضرر... حتّى صارت كالحسناء لبِست أسمالا والكريم فقد مالا، والبطل اثخنته الجراحة حتّى لا يطيق احتمالا... وبها للأوائل آثار عجيبة، ومبان متقنة الوضع غريبة، وأكثرها من حجر

1- د. عبد الله حمادي: تُحفة الإخوان في تحريم الدخان لعبد القادر الراشدي القسنطيني. دراسة وتحقيق. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1997. ص 3 وما يتبع.

منحوت يعجز الوصف إتقانه، وقد دار بها واد شديد الوعر، بعيد القعر، أحاط بها كما يحيط السِّوار بالمعصم"[1].

هذا وصف العبدري البلنسي لقسنطينة بعد قرن من وصف الإدريسي لها؛ فموضعها العجيب الذي أكسبها مناعة وحصانة ظلّ مثار إعجاب الرحالة... لكنّ العبدري يبدو أنه وجدها في أسوء حال، فكانت كالحسناء التي لبست أسمالا، والشجاع الذي أثخنته الجراح، وهو وصف يمكن إطلاقه عليها اليوم في القرن الواحد والعشرين لما تعانيه من ضَياع وإهمال لماضيها وحاضرها... لكن ما أضافه العبدري الأديب هو التأكيد على وصف الوادي، فهو الآن لم يعد عقدا كما عند البِكْري بل أصبح سِوَارا يُحيط بمعصم اليد، وهو الصورة الشاعرية التي ستُرافق قسنطينة إلى يومنا هذا، وتظلّ تتناسخ لدى الشعراء لتنجب صورا أخرى سنقف عندها في مصادر أخرى.

لكن العبدري تجاوز وصف الفضاء الجغرافي ليَلِجَ إلى أعماقها الفكرية، فيقول: "ولم أر بها من ينتمي إلى طلب العلم ولا من له في فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس، وهكذا قيّد لي اسم أبيه

1- محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية. تحقيق أحمد بن حدو نشر كلية الآداب. الجزائر. ص 29.

بخطه مخلوطا"[1]. بعد هذا الحكم القاسي الذي رمى به العبدري أهل قسنطينة بالجهل نجده يصل إلى ما هو أدهى، وذلك حين يتعلّق الأمر بذكر شاعر قسنطيني بلغت شهرته الأندلس آنذاك، لكنه يجده مجهولا من قومه، مغمورا في دياره، ونعني به الشاعر القسنطيني الفحل أبو علي حسن بن علي بن عمر بن الفكّون، إذ يقول العبدري: "فسألته عن الأديب أبي الحسن القسنطيني المعروف بابن الفكون فذكر لي أنّه أدركه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولدا ولا وفاة، ورمت أن أجد من يروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش فلم أجده، فقيّدتها هناك غير مروية "[2]. والقصيدة التي يشير إليها العبدري، والتي بلغت شهرتها الأندلس، بينما هي مجهولة في موطنها قسنطينة، هي التي مطلعها:

أَلَا قُلْ للسريِّ بن السريِّ أبي
البدر الجواد الأريحي

وتقع في اثنتين وثلاثين بيتا، وهي في رأيي من عيون الشعر الجزائري المطمور في غياهب النسيان، ولو لم تكن من الأهمية بمكان لما توقّف عندها العبدري وقفة نقدية نافذة، مثل هذه الحادثة التي تسجل على الجزائريين

1- المصدر نفسه. ص 29.

2- المصدر نفسه. ص 30.

المقصّرين في حقِّ رجالاتهم ومثقفيهم نجد مثيلاتها ستكرر بحدّة أكثر في إمارة الزّيانيين بتلمسان مع شاعرها الأكبر ابن خميس التلمساني الذي عاش ومات غريبا بين أهله مهضوم الحق؛ بلغت شهرته مصر ولم يستطع أن يثبّت اسمه حتىّ في زقاق من أزقة مدينته تلمسان[1].

ولعلّ ياقوت الحموي المتوفى عام 626هـ الموافق لـ1228م لديه ما يضيف للمدينة القلعة التي يقال لها قسنطينة "مدينة وقلعة يقال لها قسنطينة الهواء، وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير إلاّ بجهد، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب لها طريق واتصال بأماكن متناسقة جنوبيِّها تمتدّ منخفضة حتّى تساوي الأرض وحولها مزارع كثيرة وإليها ينتهي عرب إفريقية مغربين في طلب الكلأ وتزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب، وفي جبال وأراضي وعرة"[2] ثمّ يواصل وصفه نقلا عن البِكْري، لكن لما ننتقل إلى القرن الخامس عشر الميلادي فإنّنا نجد مدينة قسنطينة تحظى بوصف راق من طرف الحسن بن محمد الوزّان المعروف بليون الإفريقي (888هـ/ 1483م- 937هـ/ 1590م) وذلك في الجزء الثاني من رحلته "وصف إفريقيا" إذ يخصّص لها ابتداء من صفحة55 إلى غاية الصفحة 60

1- أنظر عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم ص: 304.

2- ياقوت الحموي: معجم البلدان. الجزء الرابع. ص349.

قائلا: "مدينة قسنطينة قديمة بناها الرومان، وهذا شيء لا يمكن إنكاره، نظرا لأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت المسودِّ، وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية، يمرّ عند قدميها نهر اسمه "سوفغمار"، والضفّة الأخرى لهذا النهر مُحاطة أيضا بصخور بحيث أن الشِّعب السحيق الواقع بين هذين الجُرفين يُستعمل كخندق للمدينة، بل هو أكثر نفعا لها من الخندق، وفي الجانب الشِّمالي للمدينة أسوار في غاية القوة. بالإضافة إلى أنّها تقع في أعلى قِمّة الجبل، بحيث أنّ الصّعود إلى قسنطينة لا يمكن إلاّ من طريقين صغيرين ضيّقين، أحدهما إلى جهة الشرق، والآخر إلى جهة الغرب، وأبواب المدينة جميلة كبيرة مصفّحة تصفيحا جيِّدا بالحديد"[1].

هكذا يُقدِّم لنا الوزّان إضافة جديدة لمحنا بعضا منها عند الرحالة الأول البِكري الذي أطلق أول تسمية على منابع قسنطينة فسمّاها "عيون أشقار" بمعنى السود، وكان علينا أن ننتظر خمسة قرون ليعيد على مسامعنا الحسن الوزّان هذه التسمية بشكل آخر هو "سوفغمار"، ومعنى "سوف" هو النهر أو الواد في بعض اللّهجات البربرية، لكن معنى باقي

1- الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا. ترجمة عن الفرنسية د. محمد حجي ود. محمد الأخضر. ط1. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. الرباط. المغرب. 1982. ج2. ص 55-56.

الكلمة لم يتّضح لي بعد، والظاهر أنّ الكلمة كلّها تعني وادي الرمال، حيث يصبّ بواد بومرزوق قبل أن يصل إلى قسنطينة؛ لذا نجد مرمول الأسباني يسمّيه هو الآخر "سوفجمار بومرزوق" ، كما يوضّح لنا الحسن الوزّان السبل المؤدية إلى قسنطينة، فبعدما كانت قديما طريقا واحدا أصبحت طريقين، ولعلّهما :سيدي راشد اليوم في الجهة الغربية والمعروف بباب الجابية، وباب القنطرة اليوم في الجهة الشرقية، وهو تطور ملحوظ في النّسيج العمراني القسنطيني.

لكن الوزّان تجاوز العبدري فقد دخل أعماق المدينة وعاين حواريها وأسواقها وعاداتها القديمة بكلّ مظاهرها الاحتفائية والاحتفالية، فيقول: "تستطيع قسنطينة، نظرا لحجمها، أن تضم ثمانية آلاف كانون، ولها موارد كثيرة، وهي متحضرّة جدا، ومليئة بالدّور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجامع الكبير والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع، وأسواق المدينة عديدة حسنة التنسيق، بحيث أنّ جميع الحرف فيها مفصول بعضها عن بعض، والقسنطينيون شجعان مقاتلون، خصوصا منهم الصنّاع، وفيها عدد كبير من التجّار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصّوفية المصنوعة

محليًا... كلّ هذه البضائع تُستبدل بالتّمر الرقيق، ولا توجد مدينة إفريقية يباع فيها التّمر بثمن بخس كقسنطينة..."[1]

هكذا يقدم لنا الوزّان بانوراما حافلة بأسواق قسنطينة، كما يقدّم لنا صورة لمدينة عربية إسلامية في أزهى أيامها، وهي من دون شك أيام انتمائها إلى الدولة الحفصية، إذ كانت تعتبر ثاني مدينة بعد عاصمة الحفصيين، لذلك قال الوزّان: "وكان من عادة ملوك تونس أن يعطوا قسنطينة لابنهم الأكبر"[2]. كما قدّم لنا تعدادا سكانيا تقريبيا، وهو ثمانية آلاف عائلة المشار إليها بكانون كمصطلح دالّ على العائلة. وللوزّان أوصاف أخرى لعادات قسنطينة نذكر منها وصفه للقسنطينيين قائلا: "والقسنطينيون مقتصدون فيما يَتعلّق بلباسهم متكبّرون مغفلون..."[3] وسوف نذكر مزيداً أثناء حديثنا عن قصيدة الشيخ المولود بن الموهوب لأنّها السبيل الوحيدة لفك رموز قصيدته، وقد كان للوزان الفضل في كشف أستار حياة القسنطينيين في أجوائهم الحميمية المشوبة بالطقوس والعربدة والغواية.

ويمكن أن نقف، بعد الوزّان -ولو قليلا- مع الورتلاني الذي حلّ بقسنطينة عام 1179هـ/ 1765م، صاحب رحلة نِحلة

1- المصدر نفسه. ص56.

2- المصدر نفسه. ص56.

3- الحسن الوزّان: وصف إفريقيا، ج2 ص:56.

اللّبيب، والمولود سنة 1125هـ والمتوفى سنة 1193هـ؛ الورتلاني الذي أعتبِره - كما سبق وأن ذكرت - من مدرسة العبدري السليطة اللّسان، فهو يقول عن قسنطينة: "وقد علمت أنّ مثل هذا الوطن - قسنطينة - يقِلُّ فيه الحلال ويكثر فيه الحرام والمتشابه... عامتها بين اعتقاد وانتقاد، وخاصّتها بين رغبة وغبطة وحسد وعناد، فالسبُّ فيها كثير، والقبح واللّعنة جار في أسواقها. فيها كثير من الدراويش كسيدي أبي القاسم الزواوي وأحمد بن غرسة وزوجته بنت خيشان ورجال الغيب. وكانت جماعة من أهل وطننا على هذا الوصف. وفيها مساجد للجمعة، نحو الخمسة، وبعضها في غاية الإتقان، لا تخلو من العلم، غير أنّ تدريسه فيها إنما يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأوائل الربيع وأما سائر الأوقات فلا؛ فليس فيها العلم الغزير ولا انعدامه رأسا، فليس يفقد جملة ولا يستمرُّ كلّية، فولّاتها لم يشتغلوا ببناء المدارس ولا بكثرة الأوقاف والأحباس لما علمت أنّها ضيِّقة، وملكها ليس كملك تونس"[1]. وواصل الورتلاني قدحه لقسنطينة، مما أجبرني على الردِّ عليه في كتابي الذي خصصته لعبد القادر الراشدي القسنطيني المنشور بدار الغرب الإسلامي ببيروت عام 1997. فهذه قسنطينة عبر

1- الحسن بن محمد الورتيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. المشهورة بالرحلة الورتلانية. طبعت في مطبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر بعناية محمد بن أبي شنب سنة 1908. ص 688-689.

مسافة زمنية تُقدّر بحوالي ثلاثة عشر قرنا من العهد الإسلامي، فهي عند الورتلاني قسنطينة العثمانية التي تقلّص منها الوهج الحضاري الذي عرفته أيّام مرور الوزّان بها، أي أيام إيالة الحكم الحفصي.

ب - قسنطينة المدينة الأسطورية

ربما آخر ما نختم به قولنا عن قسنطينة، قبل أن ننتقل للحديث عن مفتيها وشاعرها ومصلحها الشيخ المولود بن الموهوب، هو وقفة، ولو قصيرة، مع مؤرخ قسنطينة الأخير الشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار المولود عام 1790 والمتوفى عام 1870، أي بعد أربعين سنة من دخول الاستعمار الفرنسي. فقد ورد في كتابه اللّطيف والصغير "تاريخ حاضرة قسنطينة" الذي نقدّمه للقرّاء والباحثين معلومات جمّة وهامة؛ فقسنطينة ممعنة في القدم والأصالة، إذ يقول عنها "هي مدينة قديمة بناها الذي بنى مدينة قرطاجنة، وهذه الأخيرة بنيت في زمن عاد... وهي منذ ذلك العهد عامرة لم تطفأ لها نار ولا دخلها عدو قهرا"[1]. ثم يواصل قائلا: "وكانت في سالف الزمان تُسمّى بالحصن الإفريقي... مبنية على جبل، والهواء مُحيط بها من كلّ جهة كدوران

1- الشيخ الحاج أحمد المبارك بن العطار: تاريخ بلد (حاضرة) قسنطينة. اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه نور الدين بن عبد القادر. طبع بالجزائر عام 1952. ص5. وكذلك الأستاذ رابح بونار.

الخاتم في الإصبع، غير أنّ جهة الغرب منها بنوا لها أقواسا بالحجارة العظيمة... وارتفاع هائل وطمسوه من الأعلى وردموه حتى صار أرضا يدخلون عليها للمدينة. بل يقولون إن المدينة كلّها مدينة فوق أقواس وبناء عظيم من القصبة إلى باب الوادي. فقد أشاع بعض النّاس ذلك ودخل من داموس بالقصبة وصار يمشي من قوس إلى قوس، ومن مدخل إلى مدخل إلى أن خرج من تحت باب الوادي من باب صغير كان هناك يُسمّى بباب البلد أدركناه وشاهدناه مسدودا "[1]. ويرى ابن العطّار أنّ كون قسنطينة مبنية على أقواس أمر غير مؤكد، حيث يقول: "وقولهم إنّ المدينة كلّها على الفراغ لا يصِحُ لأنّنا شاهدنا بعض المواضع منها إذا حفروا ظهر الجبل، فإذا أرادوا بنيان بئر أو ساقية لماء المطر وأزبال أهل المدينة كسروا الجبل بالبارود والمعاول... والغالب على ظنّي أنّ في الجبل شِعابا ومواضع منسفِلة؛ فلمّا أرادوا بناء المدينة فوقه بنوا بتلك الأماكن أقواسا ودمسوا عليها حتّى استوت لهم الأرض فبنوا عند تلك المدينة"[2]. ويذكر ابن المبارك أنّه "كان بها سبع قناطر على البلد وواحدة على الوادي، كلّها انهدمت واندثرت إلى زمان صالح باي الذي جدّد بناء القنطرة

1- المصدر نفسه. ص6.

2- المصدر نفسه. ص6.

الموجودة اليوم"[1]. ويذكر وصول الماء إليها من بومرزوق بواسطة قنوات وحنايا، ثم يذكر: "وكان بها من جهة الغرب بُرج بقيت منه بقية إلى اليوم ويُعرف باسم "أسوس"، قالوا كان في غاية العلوِّ والارتفاع في جوِّ السماء فإذا صعدوا إلى أعلاه بفنار ينظره أهل بجاية"[2].

فنص ابن العطار أضاف جديدا: وصف الوادي الذي تغيّر فأصبح كالخاتم في الإصبع، ثم باب البلد وسبع قناطر، وأخيرا البرج La Tour المسمى أَسُوسْ، ولعله الصومعة التي ذكرها الواقدي منذ أزيد من عشرة قرون. ولعلّ خير ما نختم به هذه الجولة التّاريخية في فضاء مدينة قسنطينة هو ما ذكره ابن العطار أيام هُجوم السلطان المريني أبي عنان على قسنطينة ومحاصرتها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إذ "حاصرها بجنود كثيرة وقوة عظيمة وقطع عنها النهر وجعل ماءه يمشي إلى ناحية أخرى وحلف لا يرحل حتّى يدخلها ويجعل عاليها أسافلها، ولما تضرّر أهلها بالعطش لجأوا إلى الولي الصالح سيدي علي بن مخلوف وتضرّعوا بين يديه فدعا الله تعالى فأرسل مطرا عظيما فتق سد النهر على عادة مجراه. ثمّ وقع الصّلح بين الفريقين بأن يدخل السلطان هو وجماعة قليلة من اتباعه

1- المصدر نفسه. ص6.

2- المصدر نفسه. ص115.

ليبرّ بيمينه ويذهب عنهم، فدخل هو وخادم له لا غير، وبات بها ليلة. ووجد اليهود يسكنون "بحومة المزابل" فردَهم إلى الشارع أسفل القصبة في مُقابل قوله يجعل أسافلها أعاليها ورحل عنها ولم ينل منها شيئا"[1].

وقسنطينة كمدينة عريقة لها طقوسها شأنها في ذلك شأن المدن الأسطورية، كطروادة وطيبة وغرناطة؛ فطيبة التي استقبلت أُوديب الملك كان عليه أن يفك طِلْسمها قبل أن تفتح له ذراعيها وبوابتها المحروسة تمنع عنها كيد الغزاة؛ كذلك غرناطة المعروفة بطلسمها المشهور والمعروف باسم " فَرّوج الرَوَاح " الذي كان يعتلي باب القصبة ليحرس مصيرها، ومن هناك نجد شاعر غرناطة المجهول يُعاين هذا الطِّلَسَم فيقول فيه:

إِيوانُ غرناطة الغَرّاء مُعتبر

طِلسمِـــهُ بِوُلاَة الحَـــال دَوّارُ

وفارسٌ رُوحــه رِيحٌ تُدَوِّرُهُ

من الجِـــمَـادِ ولكن فيه أسْرَارُ

فسوف يَبْقَى قليلا ثم تَطْرُقُهُ

دَهْمَاء يخرج منها المُلك والدّارُ

1- المصدر نفسه. ص11.

فيقال "إن هذا الطِّلَسْم كان له سبع معان حسب قول عرّاف غرناطة حسن بن القائد سيدي إبراهيم العرّاف"[1]. فقسنطينة بدورها كان لها طِلَسم فوق بوّابتها الغربية يشبه اللّغز أو التميمية التي تحفظ المدينة من عادِيات الزمان وتقيها شرّ الأحداث؛ فابن المبارك مؤرخ قسنطينة يشير إلى شيء من هذا النوع كان يحافظ على أمن وسلامة المدينة حيث يقول: "وبها سور أسفل الجبل أعلى الماء الحار من ناحية الجوف يعرف "بباب الرّوّاح" بقي اليوم أثره... ويُقال إنّ حكماء قسنطينة الأُولين العارفين بموضع الطلاسم وعلم النجوم جعلوا بباب الوادي رصدا لا يدخلها عدوّ، وقد وُجد مُقيّدا على ظهر كتاب: غزيت ثمانين مرّة فلم يدخلها عدوّ، ولا نال منها شيئا لرصد بها من عمل الحكماء"[2]. فهذا الرصد الأسطوري هو كباقي الأرصاد التي كانت تعتلي بوّابة "عِشتار" ببابل، أو بوّابة طيبة وغرناطة؛ فمثل هذا الجو الحافل بالوَهَجِ الأسطوري هو الذي جعل قسنطينة تزخر بالمقدس المسكوت عنه في طيّات الدراسات، وهو ما جعل أحد رجالات قسنطينة الأفذاذ، ونعني به المولود بن الموهوب يكشف عن خبايا هذا المحرم الذي تزخر به

1- المقّري: أزهار الرّياض ج3 ص:314.

2- ابن العطار: تاريخ قسنطينة. ص7.

مدينته. وتكون قصيدته "المنصفة"[1] بمثابة إماطة اللّثام عن المغيّب في طقوس أهالي قسنطينة المسكونين بحبّ الاحتفالية ونكهة "النشرة"، بل وزردة فصول النماء والخصب، فكان "الغراب"، وكان "سيدي المسيد"، وكانت الزيارة... وقبل الدخول في تفاصيل القصيدة يجدر بنا أن نجيب عن السؤال الضروري: من هو الأستاذ الشيخ المولود بن الموهوب؟

ت - قصيدة "المنصفة" للشيخ المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة

هو الأستاذ العلامة الشيخ محمد المولود بن محمد السعيد بن الشيخ المدني بن العربي بن المسعود بن عبد الوهاب سليل أبي عبد الله سيدي الموهوب دفين يلولة من بلاد القبائل الكبرى، كما ورد في رحلة الشيخ الورتلاني، ونسبته يتصل بسيدنا الحسن رضي الله عنه[2]. كانت ولادة الشيخ المولود بن الموهوب بقسنطينة في 1283 هجرية الموافق لسنة 1865 ميلادية، أي قبل أربع سنوات من وفاة مؤرخ قسنطينة ابن المبارك، وكانت حياته حافلة بالعلم

1- محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر.إعداد وتقديم عبد الله حمادي ، نشر دار بهاء الدين الطبعة الثانية 2007 ج2 ص: 69 -75

2- الحسن بن محمد الورتيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. المشهورة بالرحلة الورتلانية. وانظر شعراء الجزائر للزاهري إعداد وتقديم عبد الله حمادي، ج2 ص: 51

والمعرفة إلى أن تسلّم رتبة مفتي قسنطينة عام 1908 إلى غاية 1939 تاريخ وفاته. ويعود له الفضل في إنشاء "نادي صالح باي" الثقافي الذي سجلت ندواته الفكرية في أعداد كلٍ من صحيفتة "لاديبيش LA DEPECHE" القسنطينية وجريدة "كوكب إفريقيا" لصاحبها عمر بن دالي المعروف بكنية الشيخ كحّول مؤلف كتاب "التقويم الجزائري". وللمزيد من المعلومات حول العلامة ابن الموهوب يمكن الرجوع إلى المهدي شغيب، ومحمد الهادي الزاهري، والأستاذ محمد علي دبوز مؤلف كتاب "نهضة الجزائر" وكذلك جريدة النجاح التي قدمت له ترجمة مطولة بمناسبة وفاته.

إن ما لفت نظري وأنا أتصفَح المختارات الشعرية التي انتقاها الزاهري في ديوانه "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" المنشور بتونس عام 1927 هو قصيدة "المنصفة" لصاحبها الشيخ المولود بن الموهوب الذي أبرز من خلالها النهج الإصلاحي الطاغي على وجدانه الشعري، وكذلك كل ما يمت للتفتح بصلة، كتمجيد الكشوفات العلمية والدعوة إلى الاحتفاء بالعلم، والتحدث عن الامتحانات ومصاعبها، والجزم بأن الأمم إنما تضمن خلودها وتفوقها بأعمالها. ومن بين قصائد الشيخ الشاعر ابن الموهوب المتميزة كما ذكرت قصيدته المعنونة "المنصفة" والتي تتكون من اثنتين وسبعين بيتا (72) نونية القافية، تدلُ على نفس شعري طويل وتحكّم كبير في الوزن والقافية، كما تضمنت ما ينيف عن

عشرين رمزا، منها الأسطوري، ومنها التاريخي، ومنها الواقعي المعيش.

فالرموز الأسطورية التي كانت متفشية بقسنطينة أيام الشاعر المولود بن الموهوب أو قبلها هي:

1 ـ الجنون. 2 ـ زارا. 3 ـ مسيد طبل. 4 ـ الزينة (كيوم زينة فرعون). 5 ـ السلاحف في غراب. 6 ـ الأعطار، جمع عطر. 7 ـ غابا. 8 ـ الحمام. 9 ـ السدرا.

والرموز التاريخية هي: 1 ـ الخنساء. 2 ـ الكسعي. 3 ـ بغداد. 4 ـ قرطبة. 5 ـ فاس. 6 ـ القاهرة. 7 ـ بخارى. 8 ـ بصرى. 9 ـ حرب الصليب. 10 ـ مركو بولو. وأما الرموز الواقعية فقد ورد منها اثنان هما: 1 ـ دوروي. 2 ـ سيديو.

فمجموع الرموز إذا واحد وعشرون رمزا.

وما يهمنا من هذه الرموز هي الرموز الأسطورية الخاصة بمدينة قسنطينة، أو بتعبير آخر المستلهمة من عادات سكان قسنطينة، وهي رموز، لأول مرة يُكشف عنها في قصيدة شعرية، إلاّ أن بعض الكتب القديمة، وكتب الرحلات على وجه الخصوص، لديها ما تقول في فك هذه الطلاسم.

وابن الموهوب، كأستاذ مصلح اجتماعي وكعالم متفتح على المدارات الحضارية الكبرى، كان يعني جيدا سبب

حضور رموزه الكثيرة في قصيدته؛ إنَّه يخاطب في مواطنيه البعد الآخر من حياتهم السرية التي تذرعت بالوثنية وفرطت في الوحدانية.

إنّ مطلع قصيدته "المنصفة" بل وثيقته المنصفة فيها من الدلالات ما يوحي بقَسَم "البراءة" أو اللجوء إلى "الكلمة السواء" للتباهي على مرأى ومسمع من الزمن القسنطيني المشحون ببقايا اللاّة والعزى ومناة الأخرى... إنهّا الرموز والمعبودات التي حلّت محلّ مقامات العارفين، فمطلع القصيدة يُوحي بهذا التقاطع المخلّ بالتوازن في النفس البشرية والتي يتضح من خلالها القلق والاضطراب والجدل من تضادّ الحركتين، فالرّوح المجذوب إلى ربه يتلفت باتجاه الأعلى، والنفس المجذوبة إلى المادة تشده إلى الأسفل ليركد في التراب ويرسب في الطين. وبذلك تتبدى مثنوية الإنسان القسنطيني المنشعب، أو المشطور إلى شطرين: شطيرة التسفّل وشطيرة العليان؛ وبسبب هذا الانشطار كانت قصيدة "المنصفة" كحدٍّ بين القيمة وضدّها، لذا يقول ابن الموهوب في مفتتح قصيدته:

صُعُودُ الأسفَلِينَ بـه دُهينا

لأنَّا للمعـارف ما هُدِينا

وأنّا التابعون لكلِ وَهْمٍ

فَسلْ عنّا عِبادتنا الجُنُونا

ثم أثناء القصيدة نجده كأنمّا يردّ على سؤال المتعجب بقوله:

وسلْ "زَارَ" و "نِسرَ مَسيد طَبَل"
و"زينَتنا" تبـيع التابعِينـا
وسلْ عنّا " السلاَحِف في غُرَاب"
و"أَعْطَارا" تُراق وعائِمينا

وسل "غَابَا" لحكم الجِن أضْحَـى
يقينا كلّ ضرٍ قـد يقِـينا

وسل ذاك "الحمـام" لدى حمام
نذبحه بلا إثم عامدينـا
وسل "سدْراً" به خـرق أنيطت
وغيرا حيث نفزع ناذرينا

مثل هذا المقطع الشعري المشحون بالرموز والإشارات الكهنوتية لا يمكن التقرب منه إلاّ بوعاء معرفي يتوافر في العديد من المصنفات الأدبية، ومصنفات الرحالة منها على وجه الخصوص. لذا لا نستغرب، كما تحدثنا المصادر، أن العلامة عبد القادر المجاوي شيخ قسنطينة الأكبر وأستاذ المفتي الشاعر ابن الموهوب يُقدم على إنجاز شرح مطول ومفصل أشبع "القصيدة اللّغز" بحثا وشرحا حتى يتسنى للمتقربين من حضرتها أن يخالطهم جذب شيوخ الطريقة، وهذا الشرح سماه "اللّمع في إنكار البدع"، وهو شرح

لقصيدة تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب، لكن هذا الشرح المشار إليه في المصادر يظل - للأسف الشديد - إلى يومنا هذا غير متوفر وبعيد المنال، وإلاّ كفانا معاناة فك الطلاسم التي سنلجأ لحلها إلى بعض المصادر التي كلفت باستنطاق مثل هذه المعمّيات والطلسمات. فالشاعر المفتي ابن الموهوب كأنّي به يقول إن الأمة إذا نفضت أيديها من العمل على ما تقتضيه سنة الحياة في هذا الكون لا بدّ من أن تضل السبيل وتستمسك بالخيالات الوهمية التي لا علاقة لها بحقائق الحياة الثابتة. وإن شئت أن تقارن - كما يشير الشاعر- قولي والواقع فانظر إلى طوائف كثيرة من سكان مدينتنا ثم ارجع البصر مليا إلى طائفتنا الضالة فسترى رأى العين القرابين التي يتقربون بها إلى الجنون والشياطين زعما منهم أنها تقيهم شرّ الحاضر وسوء المصير. ثمّ يشير في البيت الموالي إلى رموز من رموز هذه المدينة الضالة المدمنة على الغواية، فترد عبارة "زرا" و"نسر مسيد طبل" في شكل تساؤل محيّر، فزارا المشار إليها هي حفلة أقرب ما تكون إلى الوثنية كانت تقام بقسنطينة، وتعرف لدى العامة بتسمية "الزيارة" يجتمع فيها الأخلاط من الناس، والمراد بها هنا ما تزعمه النّسوة القسنطينيات من مسِ الجنون لهنّ فيلجأن إلى "زارا" ليمنعهم من مسِهم، وهي عادة شائعة في قسنطينة إلى وقت ابن الموهوب، وربمّا إلى يومنا هذا. أمّا الرمز الآخر "نسر مسيد طبل" فهو يوم من أيام العبادات

المفضلة لدى بعض القسنطينيين، وخاصة ممن يزعمون أنهم من أبناء المدينة، وذلك أنّه إذا كان يوم السبت في أوقات معينة من السنة يقوم احتفال عظيم بموضع يقال له "سيدي مسيد" يخرج موكبه بين أفواج الزنوج بطبولهم وتشتري النساء فيه أفئدة الضأن والمعز ويذهبن بها إلى الجبل المسمى بسيدي مسيد فيرمين الأفئدة فتأتي النسور تلتقطها، فيزعمن أن الأولياء الصالحين قد رضوا عنهن، والأولياء في اعتقادهن هم النسور الملتقطون لتلك الأفئدة، وذلك في مراسم خاصة، مع تزيين تيس بأفخر الثياب، ويطوفون الديار يرتزقون به، وهو المقصود بزينتنا في القصيدة. أمّا البيت الرابع الذي تضمن الرمزين: "السلاحف في غراب" و"أعطارا" فغراب موضع بفحص قسنطينة المعروف بهذا الاسم إلى يومنا هذا، وبهذا الموضع حوض ماء يُسمّى "البُرمة" وهو مجمع ماء حار من طارئ المعادن كالكبريت تأتيه نسوة قسنطينة وما جاورها بالتمر والحمص والجوز واللوز فيرمينه فيه فتأتي السلاحف تأكله فتولول النساء اعتقادا أنّ الجنّ قد رضيت بما فعلن، ويرقن فيها العطر المشار إليه في القصيدة بصيغة الجمع حتّى يعتلي الماء رداء منه. ومثل هذه الطقوس يظهر أنّها ممعنة في القدم، لأنّ الرحالة المعروفة باسم ليون الإفريقي أو الحسن بن محمد الوزّان في رحلته المعروفة باسم "وصف إفريقيا" في القرن الخامس عشر الميلادي نجده يمر بقسنطينة ويخصها

بالوصف في ست صفحات، ويقول: "ويوجد بقرب النهر وعلى مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة، ويوجد حمام مكون من عين ماء ساخن يتدفّق بين أحجار ضخمة ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف تعتقد النساء أنّها شياطين. وإذا اتفق أن أصيبت إحدى النساء بالحُمّى أو غيرها تقول إنّ سبب ذلك يرجع إلى السلاحف، وللتخلّص من الدّاء تذبح حينا دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ثمّ تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه. وكم من الظرفاء تبعوا امرأة وهي تتوجه إلى العين (الغراب) حاملة معها الإناء والدجاجة، وأخذوا الإناء بعد انصرافها، ثم طبخوا الدجاجة وأكلوها"[1].

هذه بعض العادات التي كانت متفشية في الوسط الاجتماعي القسنطيني، وهي دلالة من دلالات التناقض التي تعيشها مدينة عريقة كقسنطينة، يقلّ فيها الحلال ويكثر فيها الحرام، على حدّ قول الورتلاني... وكالحسناء لبست أسمالا والشجاع أثخن بالجراح على حدِّ تعبير العبدري... إنّها قسنطينة الصّخر العتيق وبوابة الهواء والهوى وقلعة الحصن الإفريقي التي استدار الوادي كالعقد على عنقها وجعلها تشرئب برأسها العالي الممثل في "أسوس" لترقب البحر وقوافل الغزاة والوافدين على مرّ العصور.

1ـ الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا. ج2. ص59.

ج - لمحة عن قسنطينة في العهد العثماني

تعتبر مدينة قسنطينة[1] من المدن الجزائرية الأكثر عراقة وقدما؛ وقد كانت على مرِ العصور محط أنظار الطامعين من الغزاة والمغامرين، والعابرين والرحالة؛ وظلت وتيرة نشوئها في تزايد إلى أن سطع نجمها وعلا صيتُها أيام كانت ولاية تابعة للمملكة الحفصية؛ وقد رأينا قيمة الدور الايجابي الذي أُنيطت بحمله هذه المدينة في سبيل حماية الحضرة الحفصية والمن عليها بكلِّ ريع؛ سواء كان علميا أو غذائيا أو دفاعيا. بل تمكنت من أن تصبح إحدى قلاع هذه المملكة المتاخمة للوجه الغربي الحافل بالغارات فكانت المِجَنَّ الذي يقف في حلق أطماع الممالك المجاورة، أو تحرشات الأعراب والقبائل المتربِصة بالدوائر. فكان دورها طوال العهد الحفصي بمثابة الحصن أو المدرسة الحربية التي يتربى على خشونتها أبناء السلاطين والقادة، أو بمثابة الميدان الذي يؤهلِهم لاعتلاء العرش؛ وكان للدور الفعال الذي لعبه سلاطين الدولة الحفصية الذين كانوا أصلا وفرعا من مواليد هذه المدينة ومن تربية مناعتها وصلابتها. كما رأينا الدور البالغ الأهمية للعلماء الذين أنجبتهم هذه

1- يقول مؤرخ حاضرة قسنطينة ابن المبارك: إنّها مدينة قديمة بناها الذي بنى مدينة قرطاجنة فقد ذكر أصحاب التاريخ أن قرطاجنة بنيت في زمن عاد.. وكان بها سبع قناطر... وكان بها من جهة الغرب برجٌ... يُعرف بأسُوس... ينظره أهل بجاية من شِدّة ارتفاعه. ص 8-9

المدينة والذي يأتي على رأسهم علامة قسنطينة الكبير أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني (740هـ-810هـ) صاحب التآليف الزاخرة التي تربو على السبعة والعشرين مؤلفا[1].

وهذا العالم الجليل هو القائل :

الفقه إن فكّرت فيه رأيتـه

قد دار بين قواعد مُتتاليـة

فاطلبه في القرآن أو في سُنّة

واعقده بالإجماع واترك تاليه

فجلّ مؤلفات هذا العلّامة كانت لخدمة الدولة الحفصية بمظهريها الحضاريين: التاريخي والفكري. أما ثاني الاثنتين في هذه الحلبة فهو شاعر قسنطينة الفحل أبو القاسم بن الخلوف الذي سبق وان بسطنا القول في الدور الذي لعبه في تخليد أمجاد سلاطين بني حفص وعلى وجه الخصوص

1- الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ج 1 ص 32-37.

ابن القاضي: ذيل وفيات الأعيان المسمى: درة الحجال في أسماء الرجال ج1 ص121-123.

أولئك الذين جمع بينه وبينهم مسقط الرأس ثم الاستقرار وأخيرا القرار.(1)

كما أعطت هذه المدينة سابقا لدولة بني عبد المؤمن شاعرا فحلا ممن خلّدوا مآثرها الحضارية ألا وهو حسن بن علي القسنطيني المعروف بابن الفـكون؛ والذي من تصانيفه ديوان شعر في مدح بني عبد المؤمن؛ وهو صاحب القصيدة المشهورة التي ما تزال محفوظة في بعض المراجع والتي مطلعها:

ألا قُـل للسَّريِّ بنِ السَّريِّ	أبي البدرِ الجوادِ الأريحي(2)
أما وبحقِّكَ المـبدي جـلالاً	وما قد حُزتَ من حسبٍ عليِّ
وما بيني وبينـكَ مـن ذمامٍ	وما أُوتيتَ من خُلُقٍ رضيِ
لقد رمتِ العيونُ سهام غُـنجٍ	وليسَ سوى فؤادي مِن رميِ
فحسبُكَ نارُ قلبي مِن سعيرٍ	وحسبُكَ دمعُ عيني من لتيِ
وكنتُ أظنُّ أنّ الناسَ طُراً	سوى زيدٍ وعمروٍ غيرَ شيِ
فلمّا جئتُ ميلةَ خير دارٍ	أمالتني بكلِّ رشـىً أبيِ
وكم أورتْ ظبـاءُ بني ورارٍ	أُوارَ الشوقِ بالرِّيقِ الشّهيِ
وجئتُ بجـاية فجلت بدوراً	يضيقُ بوصفِها حرفُ الرّويِ
وفي أرضِ الجزائرِ هـام قلبي	بمعســولِ المراشفِ كوثريِ

1- أنظر الدكتور عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم ص: 196.

2- ابن القاضي: درة الحجال ج2 ص236-238 (يذكر ابن القاضي من القصيدة 27 بيتا).

الحفناوي: تعريف السلف برجال الخلف ج2 ص131 (يذكر الحفناوي من القصيدة 31 بيتا). والرحلة المغربية للعبدري ص: 30-31.

وفي مليانةٍ قد ذُبتُ شوقًا ... بلينِ العطفِ والقلبِ القسيِّ
وفي تُنُسٍ نسيت جميل صبري ... وهمتُ بكلِّ ذي وجهٍ رَضيِّ
وفي مازونةٍ ما زلتُ صبًا ... بوسنانِ المحاجرِ لوذعيِّ
وفي وهرانَ قد أمسيتُ رهنًا ... لظامي الخصر ذي ردفٍ رويِّ
وابدت لي تلمسان بدورًا ... جلبن الشوقَ للقلبِ الخليِّ
ولمّا جئتُ وجدةَ هِمتُ وجدًا ... بمُنْخَنِثِ المعاطفِ معنويِّ
وحلَّ رشا الرباطِ رشى رباطي ... وتيّمني بطرفٍ بابليِّ
واطلع قطرُ فاسٍ لي شموسًا ... مغاربُهُنَّ في قلبِ الشجيِّ
وما مكناسةٌ إلّا كِنَاسٌ ... لأحوى الطّرْفِ ذي حسنٍ سَنيِّ
وإنْ تسألْ عَنَ ارضِ سلاً ففيها ... ظباءٌ صائداتٌ للكميِّ
وفي مراكشٍ يا ويحَ قلبي ... أتى الواديَ فطمَّ على القريِّ
بدورٌ، بل شموسٌ، بل صباحٌ ... بهيٌّ في بهيٍّ في بهيِّ
أبحنَ مصارعَ العشّاقِ لمّا ... سعينَ به فكم ميْتٍ وحيِّ
بقامةِ كلِّ أسمر سمهريٍّ ... ومقلةِ كلِّ أبيضٍ مشرفيِّ
إذا انسينني الولدانُ حُسنًا ... انسّيهم هوى غيلانَ ميِّ
فها أنا قد تخذتُ الغرب دارًا ... وادعى اليومَ بالمراكشيِّ
على أنّ اشتياقي نحو زيد ... كشوقكَ نحو عمروٍ بالسَّويِّ
تقسّمني الهوى غربًا وشرقًا ... فيا للمشرقيِّ المغربيِّ
فلي قلبٌ بأرضِ الشرقِ عانٍ ... وجسمٌ حلَّ بالغربِ القصيِّ
فهذا بالغدوِّ يهيمُ غربًا ... وذاكَ يهيمُ شرقًا بالعشيِّ
ولولا اللهُ مِتُّ هوىً ووجدًا ... وكم للهِ مِن لطفٍ خفيِّ

"كان من الأدباء الذين تستطرف أخبارهم وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر، وكأنهما أنوار الزهر، رحل إلى مراكش، وامتدح خليفة بني عبد المؤمن، كانت جائزته عنده من أحسن الجوائز، وله رحلة نظمها في سفرته من قسنطينة إلى مراكش، ووافق في مقامه بمراكش طلوع الخليفة لزيارة قبر الإمام المهدي رضي الله عنه، فنظم في ذلك.

وله ديوان شعر، وهو موجود في أيدي الناس ومحبوب عندهم، وهو من الفضلاء النبهاء، وكان مرفوع المقدار، وممن له الحظوة والاعتبار، وكان الأدب له من باب الزينة والكمال، ولم يحترف به لإقامة أَوَد أو لإصلاح حال، وأصله من قسنطينة، من ذوي بيوتها، ومن كريم أُروماتها، وتواشيحه مستحسنة، ومن مليح شعره:

دعِ العراقَ وبغداداً وشامَهُمُ ... فالناصريّة ما من مثلها بَلَدُ
برٌ وبحرٌ ومرجٌ للعيونِ به ... مسارحٌ بانَ عنها الهمّ والنَكَدُ
حيثُ الهوى والهواءُ الطلق مجتمعٌ ... حيثُ الغِنى والنّما والعيشةُ الرّغَدُ
والنَهرُ كالطَلِّ والجنّاتُ مشرفةٌ ... والنَهرُ والبحرُ كالمرآة وهو يَدُ
إنْ تنظرِ البرَّ فالأزهارُ يانعةٌ ... أو تنظرِ البحرَ فالأمواجُ تطّردُ
يا طالباً وصفها إنْ كُنتَ ذا نَصَفٍ ... قُلْ جنّةَ الخُلدِ فيها الأهلُ والولدُ"[1]

1- الحفناوي: تعريف الخلف ج1 ص: 131.

كما أعطت هذه المدينة من الأعلام البارزين محمد بن أحمد القسنطيني المعروف بالكَمّاد أكثر علماء زمانه تبحرا، وكما يقول عن نفسه إنّه يعرف اثني عشر علما وقد توفي في حدود 1116هـ[1] فهذه المدينة التي لحقها ما لحق عاصمتها التونسية أيّام بني حفص نجدها تتّسم بشيء من التحفّظ والتباطؤ في قبول الدخول تحت الإيالة العثمانية التركية المتصدية للنزوة الصليبية الاسبانية الشرسة. وقد تعدّدت روايات المؤرخين الثقات في تاريخ دخول مدينة قسنطينة في طاعة العثمانيين الأتراك فبعضهم كالأنبيري يحدّده سنة 927هـ 1529م أي في عهد خير الدين باشا. أما آخر كابن دينار مؤرخ الدولة الحفصية الشهير فإنه يجعله مصاقبا لانتهاء الحكم الحفصي بتونس؛ أي في حدود 933 هـ- 1536م. والذي يحدد تاريخ دخول قسنطينة تحت طاعة العثمانيين الأتراك في عام 1646 في زمن فاتح عهد باياتها فرحات باي.

إلاّ أنّ المؤرخ العنتري في تاريخ بايات قسنطينة فإنّنا نجده يفيدنا بكثير من المعلومات المعتبرة القيمة التي تدور حول كيفية اقتحام الأتراك العثمانيين لهذه القلعة الشديدة المِراس والمناعة، وذلك بحكم موقعها الجغرافي الحصين، وتلاحم أفراد أسرها الثرية وبقية سكانها.

1- الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف: ج2

فيبدو من خلال رواية العنتري إِنّه لما استتب الأمر للعثمانيين الأتراك بتونس، حوّلوا نظرتهم إلى عاصمة شرق السلطنة محاولين اقتحامها كعادتهم مع بقية ولايات المملكة المهزومة. إلاّ أنهم تفاجئوا وهم يحاولون اجتياح حصانتها بمقاومة شعبية في منتهى الشراسة والانسجام ممّا أجبرتهم على التراجع والاكتفاء بضرب الحصار الطويل المدى، وقد أدّى هذا الأمر إلى تدهور أوضاع كلَا الطرفين المتنازعين؛ المعتصم من السكان بمدينتهم والمتربص بدوائرها في قلاعه من الأتراك. إلاّ أن تدخّل بعض أفراد عائلات قسنطينة المرموقة الجانب، لإحلال السلام والصّلح بين الطرفين كان له دور جدّ إيجابي، وقد حملت عائلة ابن الفـكون الشهيرة على عاتقها هذه المسؤولية التّاريخية محرزة بذلك قَصَب السبق والتفوق على عائلات أخرى تشاركها مرتبة الشرف والوجاهة، وتتقاسم وإِياها صدارة القيادة والتأثير في شتّى مجالات الحياة.

فكان لتدخل كبير هذه الأُسرة الشيخ الفقيه الجليل عبد الكريم ابن الفـكون دور بالغ الخطورة والأهمية تسبب في إخماد دور بعض العائلات الأخرى كعائلة بني عبد المؤمن على سبيل المثال والتي كانت دائمة الولاء ومرموقة الجناب عند سلاطين بني حفص.

فقد ساعدت مبادرة ابن الفكون على إقناع العامة والخاصة بضرورة الانصياع للأمر الواقع والدخول في السلم مع الحماة الجدد الوافدين باسم الخلافة، وباسم الدّين وهما عاملان كفيلان بالوقوف كلُحمة مشتركة بين الآكل والمأكول إذا جاز هذا التصور.

كما ساعدت دعوة ابن الفكون على أن تلقى صداها والاستجابة لها لما آلت إليه الأوضاع في هذه المنطقة وهي تجتاز القرن السابع عشر الميلادي- الحادي عشر الهجري؛ فمن كوارث طبيعية كالتي يذكرها الشيخ ابن الفكون نفسه عام 1054هـ إذ يقول: «وقد ورد علينا جراد سدّ الآفاق كثرة، وكسا السهل والجبال حتّى كان قنطرة على الوادي يعبر الناس عليها وتغير منه ماء الوادي ما يزيد على شهر، وصار كالقطران فوق الماء وعلا ولم يندفع إلاّ بالدخان»[1]، وكذلك الطاعون الذي ذهب ضحيته خيرة علماء المدينة ويأتي على رأسهم ابن الفكون نفسه[2] وما لحق ذلك من مجاعات؛ وغارات من طرف الأعراب عاثت في أرضها وزرعها وضرعها فسادا وكانت هذه العوامل بمثابة الحوافز إلى الجنوح إلى الصلح، وعلى إنجاح مساعي الشيخ

1- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1 ص169.

2- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص97-98.

الفنون وتأهيله لتولي منصب الوسيط بين الوافدين والأهالي.

فبالرغم من استتباب الصلح فضّل الأتراك، وكمرحلة أولى، ولأسباب أمنية بحتة الإقامة خارج أسوار المدينة مكتفين بحصانة أبراجهم وقصباتهم التي شيدوها أيام الحصار الذي دام قرابة سبع سنوات، جاعلين منها مراكز للحماية والدفاع ومباشرة الإشراف على المدينة وضواحيها، وهي مراكز دفاعية أكثر منها نفوذية أو سلطوية على المدينة. متخوفين ومحترسين من الاختلاط بسكان المدينة وهي ظاهرة تجلت على وجه الخصوص عند الأتراك العثمانيين دون بقية الشعوب الأخرى.

ودامت الحال لمدة سبعة أعوام[1] نستطيع القول فيها أن المدينة ظلّت متمرّدة على الحكم الأجنبي تدير شؤونها حسب أعرافها وتقاليدها المتمثلة في دور العائلات الكبيرة وتأثير مشايخها. لكن هذه الحال لم تخرج المدينة مما بدأ يشعر به سكانها من ضيق وتصادم وقد أدّى بهم هذا الوضع إلى أن يجمعوا أمرهم بعد التشاور والفتوى، على مكاتبة الباشا (الداي) راجين منه أن يولي أمرهم رجلا عادلا يجمع شمل شتاتهم؛ فاستجاب الباشا متنازلا عند رغبتهم باستجابة أثبت فحواها العنتري في تاريخه على درجة عالية من

1- سبب بناء قلعة سطحة منصورة بقسنطينة أنظر ابن المبارك ص18.

الموضوعية والوضوح والعدالة والتفهم لوضع المدينة الخاص، حيث ترك أمرهم شورى بينهم وكان إجماعهم على أول رجل يفتتح سجلّ تاريخ بايات قسنطينة كان حسن بن فرحات بن مراد باي وذلك عام 1646. فيذكر العنتري على أعقاب هذا الحدث ما تمّ من استقرار حيث "دخل الناس تحت طاعته وأذعنوا لحكمه وأذهب الله الفتن، والغلاء وكثر الرزق ونزلت العافية ولم يبق واحد من الرعية إلاّ ودخل تحت الطاعة، وجمع أموالا من الزكاة والعشور وحملها وتوجه بها إلى الجزائر في عام ثلاثة وستين وألف (1063هـ) الموافق لربيع 1653.... ومشى معه ناس من أكابر الوطن وأشراف البلاد"[1] ، وهي سُنّة سيجري عليها تقليد كل بايات قسنطينة وذلك بتقديم الولاء للباشا متمثلا فيما أسموه "بالدّنوش" وكان من طليعة الأشراف كما هو طبيعي سليل آل الفقون الذي يبرزه المؤرخ العنتري كرجل في منتهى النبل والأخلاق والتدين، سمة قد شاطره فيها معظم المتعرضين لهذه الشخصية بالترجمة والتعليق.

في هذا الحدث الشوري نجد قسنطينة تحصل على شبه إجازة خاصة متمثلة في الاختيار الديمقراطي لمن تراه صالحا لتولي أمر ولايتها إذ يقول العنتري في تاريخه... فلما وصل كتاب أهل قسنطينة إلى حضرة الباشا ردّ لهم

1- العنتري: تاريخ بايات قسنطينة، ص:47

الجواب وقال لهم اختاروا من يصلح بكم فلم يجدوا أهل البلاد رجلا أحسن من سي فرحات"، وقد ساعد على كل ذلك تفهّم الأتراك العثمانيين لطبيعة الأهالي فكانت عاداتهم الغالبة في اختيار البايات لهذه المدينة كما يقول العنتري "وكانت عادة الترك في سابق زمانهم إنه ما يتربع إلى وظيفة الباي إلاّ المعروف بالحروب والشجاعة والتدبير والسياسة فبذلك كان أمرهم في الزيادة والاستقامة"[1]. من كلّ هذا نجد العنتري يسجِل لنا في تاريخ باياته ما حظيت به قسنطينة من محاباة من طرف الدايات، وظلت الثقة متبادلة بينهم وبين الأسر المرقومة الجاه كبني الفقون؛ فكان كلما عزّ الأمر وتأزم استأنس الدايات بمشورة هؤلاء الأكابر، وكان في الغالب لا يُردّ لهم طلب أو اقتراح.

من منطلق هذه العدالة الاجتماعية نجد مدينة قسنطينة تدخل مرحلة من الازدهار الاقتصادي والفكري يكاد يكون علامة بارزة في تاريخ التواجد العثماني التركي بهذه الديار وخاصة خلال القرن الحادي عشر الهجري -الثاني عشر- السابع عشر الميلادي، والثامن عشر. وهو أمر وإن كانت فيه مشاركة البايات متباينة الأبعاد والبروز وخاصة في المجال الفكري والعلمي، إلاّ أنّ الجو العام ساعد على خلق الدوافع الموضوعية للتنافس بين الأعلام وحبّ الظهور

1- العنتري: تاريخ بايات قسنطينة ، ص: 47.

وخاصة لتولي مناصب خطيرة الوزن السياسي كالقضاء والفتوى، والتدريس، الأمر الذي سنراه يُعرف بشدّة التنافس المذهبي والعقائدي أيام عبد القادر الرّاشدي ومُعاصريه.

وقد خلقت مثل هذه الثقة بين السلطة المركزية والفرعية جوا من التنافس بين الأسر المرموقة في هذه المدينة، وكان كل منها لا يخفي مساعيه للفوز بحظوة مقاليد إدارة شؤون المدينة الاجتماعية ومنصب شيخ الإسلام، وأمير الرّكب للبِقاع المقدسة، وإمامة المسجد الكبير الجامع، وإلقاء الخطبة باسم السلطان، وإدارة الحبُوس؛ مهامَ ظلّت طوال الوجود العثماني التركي بقسنطينة من نصيب أسرة بني الفكّون التي توارثتها كابرا عن كابر نظرا للولاء والوفاء الذي أبدته هذه الأسرة لهم منذ دخولهم إلى قسنطينة.

وقد ساعد هذا التنافس على إبراز شخصيات ذات وزن ثقيل في مجال المعرفة بِشقيها المعقول والمنقول، فكان عبد الكريم بن الفكّون المتوفي عام الطاعون 1073هـ/1663م. رجلا كما يذكر الحفناوي نقلا عن رحلة العياشي أنه "كان رضي الله عنه في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق، ومجانبة علوم أهل الرّسوم بعد ما كان إماما يُقتدى به فيها، وله فيها تآليف كثيرة شهد له فيها بالتقدم أهل عصره والقى الله في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب

والقالب، والتردّد إلى الحرمين الشريفين مع كِبَر السنّ، وكان يقول إذا ذُكر له شيء من هذه العلوم: "قرأناها لله وتركناها لله توفي بقسنطينة بالطاعون"[1] ولهذا الشيخ العالم جملة من التآليف متمثلة في ديوان شعر عبارة عن مدائح نبوية، "وشرح على التعريف في علم التصوف" للمكودي، فرغ من تأليفه سنة 1048هـ وشرح على شواهد الشريف على الأجرومية، وشرح جُمل المجراد ومخارج الحروف من الشاطبية"[2]، وتأليف "منشور الهِداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" الذي توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الوطنية الجزائرية وتولّى تحقيقها ونشرها أبو القاسم سعد الله ، ولعلّه هو المقصود بالذكر فيما ذكره عادل نويهض نقلا عن العياشي حيث يسميه تأليف "في حوادث فقراء الوقت" ويضيف العياشي قائلا: إنّ مروياته مستوفاة في فهرست شيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي"[3].

وإلى جانب عبد الكريم بن الفڤون تبرز شخصيات علمية أخرى من أمثال القاضي محمد المُسبح المتوفي عام 1242هـ وأخيه أحمد المسبح أبو العباس القسنطيني، وعبد

1- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1 ص166.

- العياشي: رحلة ج2 ص390-403. طبعة 1316هـ.

2- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص 97-98.

3- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص 97-98.

القادر الراشدي القسنطيني ومن يذكرهم في تحفته من أمثال: "أخيه علي الرّاشدي الذي يكبره سِنّا، والعالم الفقيه والفاضل النّزيه من حُسن لهجته وأخلاقه يروق التشريف سيدي أحمد زَرُّوق، وسَمِيّه الأديب الحاذق الأريب من في حُبِّه لانمتري السيد أحمد زرُّوق العنتري وكلُّهم من علماء المالكية، أما من الأحناف فيخصُّ الراشدي بالذّكر والثناء الفاضل الجليل والعالم الذي يلي السيد محمد بن كوجك علي"[1] ، فكلّ هؤلاء وغيرهم ممن ساهم في دفع عجلة الحركة الفكرية بمدينة قسنطينة، بمساهمات يعتبر جُلُّها اليوم في حُكم المفقود أو المكنوز أو كما يقول الحفناوي وهو بصدد الحديث عن أتعاب استحضار مادة كتابة حيث يقول: "ولم أعثر على غير هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل في مظانه ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيلة ووسيلة، لأنّ المستحوذين عليها يُفضّلون بقائها ذخيرة للأَرَضَة على إفادة طالبيها بها واستفادتهم منها، ولا يبالون بما وراء ذلك زاعمين أنّهم باستعارتها فقدوا منها كتبا نفيسة المواضيع غزيرة الوجود. نسأل الله توفيقنا وإياهم لما فيه رضاه"[2] . ظاهرة لا تزال متسببة إلى يومنا هذا في إخفاء مجهود جيل من المثقفين من أبناء القرن

1- عبد القادر الراشدي القسنطيني : تحفة الإخوان في تحريم الدخان تحقيق وتقديم عبد الله حمادي نشر دار الغرب الإسلامي بيروت 1997 ،ص 48 و51-52.

2- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1 ص9.

الثاني عشر والثالث عشر الهجري، والمتمثلة في مساهماتهم التي بدأ ظهورها ما بين 1077هـ، أي منذ تولية رجم باي خلفا لابن فرحات، الذي آل إليه زِمام الأمر عام 1112هـ، وبعد تعاقب ثلّة من البايات المشهود لهم على العموم بالعدل والنزاهة، فإنّنا نجد أحوال الأمور تضرب عصاها ويستقر بها النّوى كما يُقال وذلك أيام الباي صالح الذي آلت إليه مقاليد الأمور عام 1185هـ-1771م واستمر على العرش ما يناهز اثنتين وعشرين سنة (22) وهي فترة كفيلة لتسمح له بتنفيذ مشاريعه العمرانية والاجتماعية، كما كانت فترة مواتية لنضج أفكار الجيل المذكور آنفا، حيث شهدت قسنطينة على أيامه جوا ثقافيا ملحوظا ارتقى إلى مستوى معتبر من الجِدال المذهبي والفلسفي، وزاد من حصانة حصاد هذا الجيل كون صالح باي كما يقول العنتري، "كان رجلا عاقلا له سيرة مليحة وسياسة مستحسنة حميدة يسمع كلام الشاكين وينصر المظلومين وهو دائما يُحبّ عمل الخير ويرتضيه ويسعى في صلاح العباد... وكان من جملة سيرته الحميدة وسياسته المرضية المستقيمة أنّه بني قنطرة بطرق قسنطينة فوق الهوى أسسها وأتقن بنيانها فكانت منفعة للعباد ومصلحة وحصنا للبلاد، وأسس المساجد للديانات وأجرى للضعفاء والقلّيلين الصدقات... وهو الذي أسس مرسى سكيكدة"[1]. فبفضل هذا المجهود عرفت قسنطينة طورا من

1- العنتري: تاريخ بايات قسنطينة، ص: 63 .

الرفاهية والازدهار الفكري والاجتماعي ولولا تغير أوضاع هذا الباي في أخريات حياته لاعتبر من الأمثلة النادرة في سلك حكام هذه المدينة إلاّ أنّه بتغير أوضاع الجزائر مركز الداي، راحت قسنطينة تسحب منها تقريبا تلك الثقة أو العلامة المميزة لها وتروح أوضاعها هي الأخرى تشهد من الاضطراب والتراجع والآثار السيئة المتمثلة في الصراع من أجل السلطة بين البايات حتى وقع بينهم كما يقول العنتري "التباغض والصلف، وظهر فيهم النقص والضعف".

زيادة على كل ذلك فقد لحق أسر البايات ما لحق الأوضاع من تفسّخ وانحلال خُلقي، وفسق وفجور علنيين، مع ظلم للرعية واعتداءات سافرة من طرف أبناء بعض البايات المنحلّين خُلقيا من أمثال ابن الباي حاج مصطفى المُكّنى بأنجليز باي الذي اشتهر بالفِسق والفساد وانجرت إذايته للنّاس كما يسجل ذلك العنتري، يضاف إلى هذا ما اشتعل من فتنة تأتي على رأسها محاولة ابن الأحرش الذي ما انفك يُغادي المدينة ويُراوحها في حركة نهب وسلب وتدمير[1] فيقول صاحب تُحفة الزائر "...وخرج ابن الأحرش من تونس إلى نواحي قسنطينة ودعا لنفسه واشتدت شوكته في

1- وابن الأحرش هذا الشريف بن الأحرش رجل مغربي يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس غزا قسنطينة سنة 1219 وكان مقره بواد زهور ما بين جيجل والقل، أنظر تفاصيل ذلك في تاريخ ابن المبارك ابتداء من ص13.

تلك الجهات وزحف إلى قسنطينة بجموعه فخرج إليه حاكمها بجيشه ووقعت بينهما حروب انهزم في آخرها حاكم قسنطينة وترك ذخائره فتقوى بها ابن الأحرش وعظم الخوف عند الباي ففرّ إلى تونس بأهله وأولاده"[1]، وزاد الطين بِلّة أيام عبد الله باي الذي شاركته زوجته الحكم مما جلبت إليه سخط العام والخاص.

ومن مخاض هذه الأحداث المتقلبة بين المد والجزر، وبين الرفاهية والعجز جاء مؤرخنا أحمد بن المبارك بن العطار صاحب كتاب تاريخ بلد قسنطينة الذي نقدّمه إلى القرّاء بعد هذه المقدمات الضّافية عن قسنطينة وتاريخها وأحوالها .

1- تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ج1، ص: 117.

مـقـدمة الأستاذ نور الدّين عبد القادر 1952

الحمد لله وحده وبعد؛ فقد أفرد الشّيخ أحمد بن عمر بن محمد العطّار القسنطيني المعروف ببلده قسنطينة باسم الشّيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطّار، أو باختصار الشّيخ الحاج أحمد المبارك، كتابا لطيفا في تاريخ هذه المدينة، وولد بها عام 1790م وتوفي بها عام 1870م. وقد تربّى بميلة، وهي بلدة صغيرة تبعد بخمسة وخمسين كيلومترا عن قسنطينة. وأعمامه القاطنون بميلة من أُسرة بني العطّار المشهورة في تلك النواحي. وقد بدأ دراسته بزاويتهم. ثم بعد ذلك رجع إلى مسقط رأسه وقرأ على الشّيوخ الذين كانوا في ذلك العصر، وأحرزوا قصب السّبق في الميدان العِلمي كالشّيخ عمّار الغربي، وعمّار الميلي، ومحمد العربي بن عيسى وبالخصوص كان تخرّجه على أشهرهم وهو الشّيخ العبّاسي.

وقد ترجم للجميع الشّيخ الحفناوي في الجزء الثاني من كتابه "تعريف الخَلَف برجال السّلف"، وقد اشتغل بالتّجارة في أوّل أمره؛ وهي حرفة تُدرِّب صاحبها على الاقتصاد والعمل، وكثيرا ما كان يذهب إلى تونس لِشراء عمائم الحرير وأنواع العطور، يجلب هذه البضاعة لبيعها بقسنطينة.

وقد ساعدته جولاته إلى تونس على حضور بعض دروس جامع الزيتونة. ثم قضى فريضة الحجّ، وبعد وفاة شيخه العبّاسي عُيِّن خلفا عنه بمسجدها الأعظم (الجامع الكبير) مُدرِّسا، وكان يحضر لدروسه فيه جمّ غفير من الطلبة وغيرهم، ثم وُلِّي الإفتاء المالكي بعد وفاة الشّيخ محمد العنّابي، وعُيِّن عضوا بالمجلس الشّرعي الإسلامي المحلي، وعلّم في مدرستها الدولية في عهد مديرها الشّيخ محمد الشّاذلي العالم المتفنّن صاحب الأخلاق اللّطيفة والخدمات الجليلة التي أسداها للأمّة والدولة، المتوفي سنة 1875م في الثمانين من العمر.

ألّف الشيخ أحمد المبارك جملة كتب، منها: "حاشية على شرح الشيخ عبد الرحمان الأخضري "من أبناء القرن العاشر الهجري على منظومته المسماة: "بالجوهر المكنون في الثلاثة فنون"؛ (يعني المعاني والبيان والبديع)، وله عدّة قصائد في المدح. ولما توفي في فاتح رجب عام 1827هـ الموافق للخامس أكتوبر 1870م دفنوه بزاوية الشّيخ الزواوي سند "جبل شطابة" قُرب قسنطينة. وأمّا قوله في تعريف الخلف ج2 ص73: "مات رحمه الله عقِب سنة 1265هـ فهو على سبيل التقريب لا التّحقيق والتّعيين، وعقب معناه بعد، ولازالت بقية من عائلته بتلك المدينة".

والظاهر أنّ الشّيخ الحاج أحمد المبارك جمع هذا التاريخ الذي نحن بصدده في حوالي سنة 1852م كما يشير هو إليه في أثناء كلامه، وهو في الحقيقة نظرة إجمالية في تاريخ قسنطينة من العصور القديمة إلى وفاة صالح باي سنة 1207 هـ/ 1792م وتولِيَة حسن باي بعده. والمؤلّف بعد ما تكلّم على موقع حاضرة قسنطينة بنوع من التّفصيل اعتنى شيئا ما بحروب غزاة العرب مع أهالي الوطن، ثمّ تعرّض لذكر الحضارات العديدة التي نصبها باشاوات تونس أو أناس آخرون لهذه المدينة، ثمّ سرد أسماء البايات الذين تولّوا عليها، وأورد تفاصيل في سيرتهم وحروبهم، وختم كتابه بترجمتي الشّيخ فتح الله، وأحمد القبايلي، وليس في هاتين الترجمتين ذكر أدنى تاريخ، وكنّا نتمنّى شيئا آخر زائدا على المعتاد في تواريخنا القديمة المقتصرة غالبا على سرد الوقائع الحربية، فكان يسرنا لو تعرّض مثلا لما يتعلّق بالعلم والعلماء، وحياة الأهالي والمسائل الاقتصادية فهي مفيدة للقارئ أكثر من غيرها وأولى بالتفات النظر إليها، ولكنّه صرّح في أول تأليفه بأنّه لم يجد ما يعتمد عليه من التقاييد والكتابات غير ما تناقلته الألسنة وسمعه من بعض الناس بالتواتر، ويُفهم من ذلك أنّه لم يكن بين يديه كتب كثيرة لمؤرخين ثقات، فهو تراه لم يذكر منهم سوى ابن أبي دينار القيرواني صاحب كتاب "المؤنس في أخبار إفريقية وتونس"، ولا نرتاب في أنّه نقل من مؤلفين آخرين

لم ينصّ على أسمائهم. وعلى كلّ حال فإنّ تأليفه ،ولو كان صغير الحجم، فإنّه غزير الفائدة، فوصفه لبلده وموقعه فوق صخرة مُشرفة على ما حولها يدلّ على أنّه شاهد الآثار وتأمّل فيها وتفطّن لأسباب اختيار السكان الأقدمين لها ؛ فهي حصن طبيعي منيع وأيدي بني آدم أصلحته وأهّلته للإقامة والسكنى؛ فقسنطينة مدينة كادت تكون منفردة من نوعها، ولولا سآمة الإطالة لأتينا بجميع ما كتَب عنها أبو عُبيد البكري من رجال القرن الخامس عشر الهجري في كتابه "المسالك والممالك"، والشريف الإدريسي من أبناء القرن السادس الهجري في كتابه "نُزهة المشتاق في اختراق الأفاق".

فالبكري يقول عنها: "هي مدينة أولية كبيرة، آهلة ذات حصانة واسعة ليس يُعرف أحصن منها إلى آخر ما قال..."، وأولية بمعنى قديمة – والإدريسي يسمِّيها: "قسنطينة الهواء"، وتراه يقال عنها ما يلي: "هي مدينة على قطعة جبل منقطع، مربع فيه بعض الاستدارة، لا يُتوصّل إليه من مكان إلاّ من جهة باب في غربيِّها ليس بكثير السعة، ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها، وأرضها كلّها حجر صلد؛ وهي من أحصن بلاد الله، وهي مُطلّة على فحوص متّصلة، ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدّة في جميع جهاتها... "(انتهى مع بعض الحذف).

والحاصل فهي حقًا كما قيل سالفا: "بلدة الهواء والهوى، الرِّيح تخفق فيها وتعصف عليها من كلِّ جانب لعلوِّها، ومنظرها العجيب الجذّاب مع شلاّلات واديها وما يحيط بها من حامَّتِها وجبالها ربّما جلب الهوى لساكنها (من حيث يدري ولا يدري)، فليسافر إليها من لم يرها ليُمتِّع مقلته في روض محاسنها ويشاهد تلك العروس على منصَّتها.

تاريخ قسنطينة ليس فيه تبويب إلاّ بعض العناوين، ولتسهيل قراءته جعلنا له عناوين أخرى، إنشاؤه بسيط لا بأس به في الجملة مع أنّه يستعمل أحيانا بعض الألفاظ أو التراكيب من اللغة الدّارجة. والمؤلّف لم يتردّد في التّصريح بأنّ تفريط الولاة المسلمين في قديم الزمان كان سببا في انهدام الأسوار وعدم الإصلاح للمباني والترميم ولكن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى البايات الذين أحسنوا .

وهو يعتني أيضا بذكر الاضطرابات والفتَن التي لم تترك للسكان لا راحة بال ولا اطمئنان خاطر، فإذا غفل عنهم الباي بداخل المدينة وتناعس هاجمهم باي أو باشا بظاهرها، فلعلَّ ذلك هو المعنى العميق للقول العامي الذي كان بها سائرا في أواسط القرن التّاسع عشر الميلادي: "هذا زمان القُبْطَان بُوسنَة كلْ كُسيرتَكْ وتِهنىَ" أو: "مع ولَد السّلْطان وبُوسِنَة كلْ خبزتك وتهنى"؛ والمراد ببُوسِنة

(بتشديد النون) رئيس المدينة في ذلك العصر واسمه الفرنساوي: بُوَاسُوني، وولد السلطان هو: الدّوق دُومال.

وقد أبقينا الكتاب على حاله ونبّهنا على ما وجب عليه التنبيه باختصار في آخره وبعد مُنتهاه. وترجم هذا المؤلف اللّطيف إلى الفرنساوية "المسِيُو ألفريد دُورنان المدير الأسبق للمدرسة الرسمية الإسلامية بمدينة قسنطينة.

هذا هو العمل الذي قمنا به جعله الله خالصا لوجهه الكريم والسلام.

A. Dournon: Kitab Tarikh Qosantina d'El Hadj Ahmed El Mobarek, Alger, typographie Jourdan, 1913, p. 1-4.

- **مقدمة الأستاذ رابح بونار 1971.**

ترجمة الحاج أحمد بن المبارك صاحب تاريخ قسنطينة[1] (1204 هـ/ 1870 م)

- نشأته

وُلد أحمد بن عمر بن أحمد بن محمد العطار القسنطيني، ويُدعى باسم الحاج أحمد بن المبارك بن العطّار[2] بمدينة قسنطينة عام 1790م وتوفّي بها عام 1870م (1204هـ-1287هـ) وانتقل إلى ميلة صغيرا ونشأ بها بين أخواله بني العطّار الميليِين، ودرس في زاويتهم العائلية مبادئ العلوم، ثمّ رجع إلى قسنطينة ليتابع دراسته العلمية على شيوخها المشهورين كعمّار المغربي بجامع القصبة[3].

1- تاريخ حاضرة قسنطينة لأحمد بن المبارك : تصحيح وتعليق الأستاذ نور الدين عبد القادر – ط الجزائر، 1952م.

A. Douran : Kitab Tarikh Qosantina d'El Hadj Ahmed El Mobarak. Alger, typographie Jourdan, 1913, p. 1-4.

2- سقط اسم الجد أحمد من ترجمة الأستاذ نور الدين عبد القادر.

3- ترجم له الحنفاوي في تعريف الخلف جـ2 ص286 وقال فيه : كان أديبا محصّلا في المنقول والمعقول، شاعرا مجيدا وله حاشية جليلة على الشيخ ابراهيم الشبرخيني وتوفي سنة 1251هـ.

وعمّار الميلي، ومحمد العربي بن عيسى بمدرسة سيدي الكِتّاني[1] والشّيخ العبّاسي[2] وهو أشهر من تتلمذ عليه.

- احتراف التجارة

ولما بلغ طور الشباب تعاطى التِّجارة فكان يذهب إلى تونس لشراء عمائم الحرير وأنواع العطور ثمّ يعود بها لبيعها بقسنطينة، وقد ساعده تردُّده على تونس أن يحضر حلقات دروس جامع الزيتونة.

وزار مكّة وأدّى فريضة الحجِّ واستفاد من لقاء الشيوخ فيها، ثمّ عاد إلى وطنه وعكف على تدريس العلوم الدينية وغيرها ،ولما توفي شيخه ابو العباس أحمد بن سعيد العباسي

1- عرف به الحنفاوي في تعريف الخلف (جـ 2 ص430) فقال: إنّه كان من أجِلّة العلماء وأفاضل البلد. أخذ عن العباسي والطلحي ووَلِيَ النظر على الأوقاف والقضاء والتدريس بمسجد سيدي الجليس، وتوفي سنة 1254هـ / 1838-1839م.

2- ترجم له الحفناوي في تعريفه (ج 2 ص 59) فقال: هو أبو العباس أحمد بن سعيد العباسي أخذ عن الشيخ سيدي حسن الشريف خطيب جامع الزيتونة وغيره، ثمّ رجع إلى قسنطينة فكان آية زمانه حِفظا وإتقانا في البلاغة والبيان، عارفا برجال الحديث مُحصّلا لفنّ المنطق والكلام والعلوم الإلهية، متمكّنا من آداب المناظرة، ولي النظر على الأوقاف، ثمّ القضاء مرتّين، والخطابة بمسجد سيدي علي بن مخلوف وبمسجد رحبة الصُّوف له تقاييد على صحيح مسلم، وعدّة مؤلفات أخرى، وتوفي في 2 جمادى الثانية سنة 1251هـ / 1835-1836م.

عُيِّن خلفا عنه في منصبه بالجامع الكبير بقسنطينة فألقى دروسه ومحاضراته الدِّينية وغيرها بين رحابه، وكان يحضر هذه الدروس كثير من الطلبة وغيرهم.

- منصب الإفتاء

وتولّى منصب الإفتاء المالكي بعد وفاة شيخه محمد العبّاسي، وعُيِّن مدرسا بمدرسة قسنطينة الدولية(1) تحت إدارة الشّيخ محمد الشّاذلي القسنطيني العالم الأديب المتوفي سنة (1875م/1292هـ) وعُيِّن عضوا بالمجلس الشّرعي الإسلامي المحلِّي الذي كان يرأسه الشيخ المكِّي البُوطالبي دفين تُربة صالح باي بمدرسة سيدي الكتِّاني بسوق العصر من قسنطينة.

وتوفي المترجم عام 1870م ودفن بزاوية الشّيخ الزواوي بِسَنَدِ جبل شَطّابة على مقربة من قسنطينة.

1- أحدثت هذه المدرسة في 3 سبتمبر سنة 1850م وتولّى إدارتها الشّيخ محمد الشاذلي بن عيسى في 30 سبتمبر سنة 1850م مدرّسا للنحو ومرتبه السنوي 175 فرنكا، وعيّن بها الشّيخ سيدي محمد المكي بن سعد الله البوطالبي مُدّرسا للفقه في 30 سبتمبر سنة 1850م ومرتّبه السنوي 125 فرنكا. وعُيّن بها مترجمنا أحمد بن المبارك مُدرّسا للتّوحيد في 30 سبتمبر 1850م أيضا، ثمّ التحق بهذه المدرسة طائفة من أعلام اللّغة والأدب والفقه بعد ذلك كالشّيخ أحمد بن حلّول سنة 1865م ومحمود بن محمد الشاذلي، والشيخ عبد القادر المجّاوي في 20 أفريل سنة 1878م والأستاذ بن أبي شنب، والشيخ المولود بن الموهوب وغيرهم.

وقد وهم الشّيخ الحفناوي في تعريف الخلف في تاريخ وفاته فذكر أنه توفي سنة (1260هـ/1884-1849م)[1] وهو ما تفرّد به وحده.

-- مؤلّفاته

وفي هذه الأثناء ألّف كتبا مختلفة منها: "تاريخ قسنطينة" وكتب أخرى لا نعرف عنها كثيرا مثل "سُلَّم الوصول في الصلاة على الرسول" "وقصيدة في مدح النبي(ص) " أعطاها للشّيخ العبّاسي "وحاشية على منظومة الجوهر المكنون في البلاغة" لعبد الرحمن الأخضري المتوفي حوالي سنة 981هـ / 1573 – 1574م، وسلسلة في طريقة الشّيخ الزواوي صاحب الطريقة الحنصالية بقسنطينة، وكان المترجم من أتباعها وأحد أعلامها، وكان صديقا لخَلَف الشّيخ الزواوي وهو حمّو بن الزواوي.

ولما توفي المترجم يوم الثلاثاء الأولى من شهر رجب عام 1287هـ/ أكتوبر سنة 1871م كان ذا حظوة في أن يُدفن في مقبرة الشّيخ الزواوي صاحب الطريقة بجبل شطابة على بضع كيلومترات من رفاش، وتوجد على قبره أبيات منقوشة فيه تاريخ وفاته مـن نظم الشّيخ عاشور.

1- أنظر تعريف الخلف ، ج 2 ص: 73.

أولاده

وكان للمترجم ولد تولى رتبة مقدم في الطريقة الحنصالية[1] على يد السيد بلقاسم بوحجار ولد حمّو بن الزواوي صديق أحمد بن المبارك، وكان له حفيد هو عبد المؤمن الذي شغل منصب مقدم للحنصالية أيضا، وذكر Coppoloni وDepont في كتابهما (الإخوان الإسلاميون) شهادة تقديمه لهذا المنصب بتاريخ 1307هـ/ 1889م، ومن هذا نستنتج أنّ المترجم كان من دعائم الطريقة الحنصالية، وأنّ أبناءه وأحفاده كانوا من مُقدميها بعده.

الحركة العلمية في عصره

إنّ الحديث عن الحركة العلمية بقسنطينة موطن الحاج أحمد بن المبارك مترجمنا في عصره بالقرنين: الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين قليل المراجع إلاّ ما جاء عرضا في "رحلة الورتلاني" و"تُحفة الزائر" و"تاريخ صالح العنتري" و"تعريف الخلف برجال السلف للحنفاوي".

1- A.Dournon : Ritob Torikh Qasantina d'El Hadj Ahmed El Mobarek p.1.

كتب عن الطريقة الحنصالية السيدان: في كتابهما "الأخوان"

Les Conféries Religieuses Musulmanes

كتابة مستفيضة. ونجد في كتاب "مناقب الشيخ الزواوي" تفصيلا لبعض أوراد هذه الطريقة ولتاريخ الشيخ الزواوي وما وقع له مع صالح باي فخرج مغاضبا له من قسنطينة والتحق بالجبل الذي دُفن فيه. (مناقب الزواوي مخطوط خاص).

أمّا الحسين الورتلاني الذي زار قسنطينة في رحلته إلى الحجّ وعودته منه حوالي سنة 1179هـ/ 1765-1766م فقد أعطانا بسطة موجزة عن هذه الحركة العلمية قبل ولادة أحمد بن المبارك بقليل، وهي تفيدنا كثيرا في استشفاف معالم هذه الحركة على العموم، وتساعدنا على دراسة نشاطها الذي امتدّ إلى القرن التاسع عشر الذي عاش فيه المترجم وأدركه شيوخه يقول الشيخ الحسين ين محمد الورتلاني في رحلته[1]: "إنّ قسنطينة هذه منذ اجتمعنا فيها مع الفضلاء والنّجباء والصّلحاء وأعيان الوقت، السالمين إن شاء الله بسببهم من المقت، منهم الصّالح الفاضل سيدي يحيى اليعلاوي[1] والفقيه سيدي أحمد الزّين[2]، وسيدي فرح وسيدي علي الزموّري وسيدي خليفة الشّارف، وسيدي أحمد العلمي وسيدي عبد الله التّومي، وسيدي علي بن سعيد وسيدي السعدي الصدراتي وسيدي الطاهر بعداش، وسيدي مبارك بن بوقرانه وسيدي محمد الشليحي، وسيدي محمد بن نزار وسيدي عصي الشريف بن منصور والعلامة الفاضل سيدي علي الشريف المفتي الآن كما يقول الورتلاني وقاضي الجماعة النحوي الأصولي البياني المتكلِم المحدث المفسر سيدي عبد القادر الرّاشدي ونظيره أخوه علي

1- الحسين الورتلاني : نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. الجزائر: مطبعة فونتانا الشرقية، 1326هـ/ 1908م ص690.

2- نزهة الأنظار المذكورة ص693.

الراشدي ومثلهما سيدي ابراهيم الضرباني قاضي المالكية والعالم الأديب سيدي شعبان بن جلول قاضي الحنفية وسيد أحمد الزراري وغيرهم.

ثمّ يقول الورتلاني في قسنطينة وهي (أي قسنطينة): فيها الآن أفاضل في العلم والصلاح والورع والزهد وقد اجتمعنا بهم عند سيدي سعيد السفري.

وحدّثنا عن موظفي الحكومة من العلماء فقال: إنني التقيت بأعيان الحضرة السّلطانية والمملكة الشرقية من الكُتّاب وأرباب الدّولة من أهل العلم، وكذا أئمة المساجد وأمير الركّب الحِجازي سيدي بدر الدين بن عبد الكريم الفكّون واجتمعت بالشّيخ الفاضل سيدي أحمد بن الأحمر وبالعلّامة سيدي أحمد بن وادفِل، وبالفاضل محمد العنتري وغيرهم.

حديثه مع الشّيخ عبد القادر الراشدي: وحدثنا عن الحركة الانتقادية التي أحدثتها رسالة عبد القادر الرّاشدي في علم الكلام بين علماء قسنطينة، وقد ذهب إلى منع تأويل المتشابه في العقائد فثار عليه معاصروه ورموه بالتّجسيم "وبعضهم كفّره، ومن الإسلام أخرجه" وقد ردّ عليه الشّيخ الورتلاني بقوله: "اتفق أهل السُنّة قاطبة على نفي الجارحة، وما يؤدّي إلى الإمكان والحدوث والتّجسيم فمنهم من قال: أنّ له يدا حقيقة، والعلم بها مُوكّل إلى الله تعالى فلا

يستلزم هذا التجسيم لأنّ الأصل في الإطلاق الحقيقة فكيف يلزم به مع أنّه نفى التّجسيم الذي يستلزم مالا يليق به جلّ جلاله فأنىَ أو كيف أو متى يلزمه؟ وإنّما هو تحاملُ عليه سببه الحسد والبغض والتنافس..."[1] واتصل الورتلاني بالرّاشدي وأراه رسالته في الموضوع.

وقرأها فرآها "مُنقّحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التّجسيم. وبالغ خصومه في تضليله حتّى أرادوا الفتك به عند السلطان فسلم والحمد لله من شرِّهم غير أنّهم اخرجوه عن المنصب الذي كان له في القضاء وصيّروه لأنفسهم"[2].

وهذه صورة عامة عن الحركة العلمية وأعلامها بقسنطينة قبل ولادة المترجم بقليل ولا شك أنّ بعض هؤلاء أدركه المترجم.

- ما قاله صالح العنتري:

وأشار صالح العنتري إلى أنّ قسنطينة كان فيها بعض العلماء والأدباء منهم محمد القاضي الذي استقبل الدُوك دومال بقصيدة جاء فيها:

بُشرى لنا بقدوم هذا الوالي

ولكلِّ ذي فضل من المعــالي

1- أنظر: تحفة الإخوان في تحريم الدخان لعبد القادر الرّاشدي.

2- نزهة الأنظار.

يحمي الإمارة سيفه مُتجرِدا
مِنْ غِمده للـــحكـم للمـال
محبوب اهل العلم مثل حُبه
لهم فيــا سعد رضى الحـــال
فَرِح الفُؤاد به لكونه يكـرم
ذا الفضل بالتّعظيم والإقبال(1)

- ومنهم الشّيخ محمد الشّاذلي القسنطيني المشهور، وقد انشد في التّرحيب بالدُوك دُومال قصيدة جاء فيها:

قدُومٌ جميلٌ لا يُفارقه السّعدُ
ويصحبه التّعظيم والعِزّ والرُشدُ
طلعتم كبدر الأفُقْ من بعد غيبة
وانتم بدُور العِزّ، انتم لنا العضدُ

إلى أن يقول:

فأهلا بكم زرتمونا ومرحبا
فزورتكم فيها لنا الفخر والمجد

- ما قاله صاحب تعريف الخلف:

وأمّا ما قاله الحنفاوي في هذه الحركة العلمية التي عاشها أحمد المبارك وتأثر بها فيتجلّى لنا فيمن ترجم لهم من أعلام هذه الفترة التي تستغرق النِصف الأول من القرن التّاسع عشر الميلادي.

1- صالح العنتري : الأخبار المبينة مخطوط بالمكتبة الوطنية ص 180.

ومن هؤلاء الأعلام:

- أبو القاسم بن محمد بن عيسى، وكان أُعجوبة زمانه في الحِفظ والإطِّلاع، ودرس في زواوة بزاوية ابن أبي داوود، ثمّ التحق بقسنطينة كاتبا لدى الحاج أحمد باي، وتوفي بها سنة 1234هـ/ 1818- 1819م.

- ومنهم محمد بن علي الطّلحي القسنطيني وكان فقيها نحويا أصوليا لغويا تولى الإمامة بمسجد سيدي مسبّح الحَرَايْري[1] وتوفي سنة 1232هـ[2].

- وسيدي عبد الرّحمان باش تارزي القسنطيني ناشر الطّريقة الرّحمانية بها وكان عالما صوفيا، وتوفي سنة 1222هـ أو 1221/ 1807-1808م أو 1806-1807م.

- وأبو منصور عمّار الشّريف القسنطيني، وكان من نخبة أعيانها أديبا أصوليا بيانيا مشاركا في جميع الفنون، أخذ عنه لُونيسي الأصغر، والميلي، وتقلّد نظارة الأوقاف والخطابة بجامع رحبة الصُّوف، ومات سنة 1241هـ.

- ومصطفى العجمي القسنطيني، وكان عالما جليلا في الفقه المالكي وتولّى الإمامة بجامع "سوق الغزل"، ومات في حدود 1240هـ/ 1826-1825 م[3].

1- الحفناوي :تعريف الخلف برجال السلف ج 2، ص: 30.

2- المصدر السابق ج2، ص: 482.

3- المصدر السابق ج2، ص: 569.

- وأحمد بن بعداش وكان عالما في القراءات وقد توفي سنة 1247هـ[1].

- وابو منصور عمّار بن شريط القسنطيني، وكان حافظا فقيها أديبا محدثا طويل الباع في علم البلاغة، وتولّى نظارة الأوقاف إلى أن توفي سنة 1250هـ[2].

- وابو راشد عمّار العربي القسنطيني، وكان أديبا طويل الباع في المعقول والمنقول، شاعرا مُجيدا تولّى الخطابة بسيدي علي بن مخلوف، والتّدريس بمدرسة سيدي الكتاني وجامع القصبة، وقد ترك حاشية على الشبرخيتي وتوفي سنة 1251هـ[3].

- ومحمد بن سالم المعروف بابن الطبال، وكان عالما جليلا في المذهب الحنفي، وله باع طويل في البديع والأصول والمنطق، وقد لازم الشيخ العبّاسي حتّى تخرّج عليه، وتولّى التّدريس بمدرسة الجامع الأخضر والخطابة والإمامة بجامع سُوق الغزل وتوفِّي سنة 1250هـ[4].

- ومحمد سعيد المغربي القسنطيني، وكان عالما حافظا فصيحا وتوفي سنة 1250هـ[5].

1- المصدر السابق ج2، ص:95.

2- المصدر السابق ج2، ص: 286.

3- المصدر السابق ج2، ص: 286.

4- المصدر السابق ج2، ص: 395.

5- المصدر السابق ج2، ص: 385.

- ومحمد العربي القسنطيني، وكان من جِلّة العلماء وتولّى نظارة الأوقاف، والقضاء، واشتغل بالتّدريس بمسجد "سيدي الجليس"، وتوفي سنة 1254هـ[1].

- ومصطفى الشاويش القسنطيني، وكان أديبا عالما جليلا في المذهب الحنفي، وخطب "بالجامع الأخضر"، وعرضت عليه الفتوى بعد باش تارزي فرفض ومات سنة 1252هـ[2].

إنّ هؤلاء الأعلام، عدا من ذكرناهم سابقا، كان يعاصرهم المترجم، وتزدان بهم الحركة العلمية في فترة الاحتلال.

ولعلّ هناك من شارك أحمد بن المبارك والعنتري في كتابه تاريخ قسنطينة ولكنه ما يزال مجهولا لدينا.

ومن هذه الكتب التي لا نعرف عنها شيئا كتاب: "عائلات قسنطينة[3] وقبائلها وعربها وبربرها" لعبد القادر الرّاشدي الذي مات أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ولاشك أنّه يذكر تاريخ هذه العائلات والأحداث التي قامت بها خلال العصور الماضية.

ولمّــا كان تاريخ أحمد بن المبارك لا يقتصر على العصر التركي وحده كما فعل صالح العنتري في كتابه، بل يتناول نبذا من تاريخ قسنطينة القديم غير مرتبة ولا

1- المصدر السابق ج2، ص: 430.

2- المصدر السابق ج2، ص: 568.

3- كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، دمشق: طبعة الترقي، 1958م 5: 288.

متناسقة، رأيت من الضّروري أن أكتب بسطة عن تاريخ هذه المدينة منذ العهد القديم إلى القرن التاسع عشر.

قسنطينة عبر التاريخ

إن مدينة قسنطينة[1] كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية سُمِّيت في القرون الوسطى "سيرتة" وكانت عاصمة سلاطين نوميدية، فكان لصيفاقص منهم قصر عظيم، ولمصينيصا والملوك الذين جاؤوا بعده قصور وعنوا بها فزينوها ونظموها وجلبوا إليها التجار اليونانيين والرومان، وفي عهد سيزار بالقرن الأول (ق.م) دخلت مدينة سيرتة تحت حكم رومة، وحوالي سنة 311م حطّمها القائد ماكساس.

ولما ربح قسطنطين الحرب جدّد بناءها سنة 313م ومن ذلك التّاريخ صارت سيرتة تحمل اسم قسنطينة أخذا من اسم مجدّدها قسطنطين (288م-237م).

ثمّ دخلت قسنطينة تحت الحكم الوِندالي من سنة 432م إلى سنة 534م، والبيزنطيين من سنة 534م إلى سنة 674.

1- دائرة المعارف الإسلامية مج 1 ص 885.

- قسنطينة تحت الحكم الإسلامي

وفي القرن السابع الميلادي هاجم الفاتحون العرب مدينة قرطاجنة والمدن الأخرى البيزنطية التابعة لها، ومنها قسنطينة فدخلت تحت حكمهم.

يقول ايفير: فتح المسلمون قسنطينة في تاريخ سكت عنه المؤرخون، وعلى التقريب يكون العرب قد دخلوها في القرن السابع الميلادي.

تحت حكم الولاة والأغالبة وتحت حكم الفاطميين والزيريين.

وبقيت قسنطينة تابعة للقيروان على عهد الولاة من سنة 50هـ إلى سنة 182هـ.

- وعهد الأغالبة 182- إلى سنة 396هـ.
- والفاطميين من سنة 296هـ- إلى سنة 362هـ.

ثمّ دخلت تحت حكم بني زيري سنة 362هـ ودامت إلى سنة 542هـ وهاجمها الهلاليون حوالي 462هـ وتحكّموا فيها، ثمّ خرجت عنهم ودخلت حكم الحمّاديين(404-547) في عهد النّاصر الحمّادي 454-481هـ.

ووقعت بها ثورة "بلياز" عمّ الأمير النّاصري ودامت تحت حكم الحمّاديين إلى آخر عهدهم، ولما سقطت بجاية في

يد الموحِّدين دخلت قسنطينة تحت حكمهم في سنة 547هـ/ 1153- 1154م.

وهاجمها علي بن غانية سنة 580هـ-1185م فرُدَّ على أعقابه ودامت تحت حكمهم حتّى استقلّ بها ابو زكرياء الحفصي سنة 626هـ/ 1228-1229م ودخلت حينئذ تحت الحكم الحفصي، وكانت قسنطينة على عهد الحفصيين تتمتّع بمكانة ممتازة، وكثيرا ما كانت تخرج عن حكمهم تحت والٍ يستقلّ بها، أو يكون تابعا لأمير كما كان ذلك على عهد أبي البقاء سلطان بجاية سنة 1309م/708هـ، ووقعت بها عِدّة ثورات ما بين سنتي 1309-1312ه ومن سنة 1312م/ 710هـ إلى سنة 1319م/ 769هـ.

كانت قسنطينة مدينة تحت حكم الوزير ابن الغُمر، وجلب إليه أبا يحيى ونصره وأعانه على السلطنة بتونس.

وفي سنة 1365م وقع انقلاب آخر بسعي ابن قالون، وهاجمها بنو عبد الواد مرّات بدون جدوى، وفي وسط القرن الرابع عشر سنة 1347م/747هـ احتلّ أبو الحسن المريني قسنطينة وطرد منها الحفصيين ثمّ لما انهزم بالقيروان استقلّت عنه تحت حكم الفضل الحفصي.

وأرادت قبيلة الذواودة وسدويكش احتلال قسنطينة فدافعهم عنها أميرها سنة 1355م / 755هـ وعاد أبو عنان إليها واحتلها من جديد حوالي هذه السنة 1355م/755هـ.

ثم رجعت إلى حكم أبي العبّاس الحفصي سلطان تونس سنة 1370م/771هـ ونعمت بالهدوء في عهده.

وجاء بعده أبو فارس الحفصي فدخلت تحت حكمه وخرجت عنه ثمّ عادت إليه، وفي القرن الخامس عشر لم يحدث بها ما يستحقُ الذِّكر وكان يتولّى حكمها أبناء صولة وهم فرقة من الذواودة وبعض عائلاتها كعائلة عبد المؤمن، وعائلة ابن الفكون وعائلة ابن باديس.

دخول الأتراك

في هذا القرن دخل الأتراك الجزائر، واستقر نفوذهم بها، وطموحهم إلى امتلاك قسنطينة سنة 1517م/923هـ حسب قول فايسيت vayssette ومارسيي Marcier وهاجمها حسن قائد خيرِ الدين سنة 1519م أو سنة 1520م/ 925هـ. واحتلّها.

ثمّ خرجت عن التُرك ودخلت تحت الحكم الحفصي، وكان فيها ممثلهم سنة 1526م / 933هـ واستردها التّرك سنة 940/1534هـ ودعموا حكمهم فيها، وقاومهم الحفصيون وبعض القسنطينيين ووقعت حروب بينهم؛ وجاء في "إتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف[1]: "انَه لمـَـا بُويع الحسن بن محمد الحفصي بعد وفاة أبيه محمد سنة 932هـ/1526م خرجت عن طاعته سوسة والقيروان واستولى الترك على قسنطينة وتغلّب الأعراب على جلِ البلاد، وفي أيامه دخل خير الدِّين باشا مدينة تونس.

1- ابن أبي الضياف، أحمد: الاتحاف ج1 ص191.

ثمّ خرجت قسنطينة عن حكمهم إلى أن استردّوها سنة 1567م/974هـ أو سنة 1568م-975هـ وطردوا عنها الحفصيين، ثمّ خرجت عنهم أيضا وعادوا فاستردّوها وحكموها إلى أن ثار عليهم القسنطينيون سنة 1572م/979هـ واستطاع التّرك بعد ذلك أن يقهروهم وأن يخضعوا أسرة بني عبد المؤمن التي كانت تتزعم المعارضة، ومن ذلك التّاريخ استقر نفوذ الترك بقسنطينة، وقد اعتبر المؤرخان: أحمد بن المبارك وصالح العنتري بداية الحكم التركي من هذا الاستقرار.

وفي سنة 1642م/1052هـ لما ثارت القبائل على الترك عاون القسنطينيون الترك.

وفي سنة 1673م/1046م حكم الباي فرحات قسنطينة ونالت على عهده هدوءا واستقرارا، ودامت قسنطينة على العموم تتمتّع بحكم قويٍّ إلى أن قتل صالح باي سنة 1792م/1207هـ فأخذت في التراجع بعد ذلك وجاء بعده 17 بايا- من سنة 1792 إلى سنة 1826م كانوا جبارين، فوقع الاضطراب في قسنطينة ونقصت التِّجارة وتوقّف العمران.

وزاد ذلك بلاء ثورة ابن الأحرش الذي هاجم المدينة 1804م وأخذ بعض أبوابها.

وتبع هذه الفتنة هجوم الجيش التونسي عليها بقيادة سليمان كاهية سنة 1807م وحاصرها مدّة فدافعته المدينة، وجاءته نجدة من الجزائر فانهزم الجيش التونسي وأُسر منه نحو 1167 جنديا وغنمت مُعدّاته الحربية.

وآخر باي تولّى حكمها هو أحمد باي، وكان رجلا يقظا حازما، واستقلّ بالحكم في قسنطينة بعد احتلال مدينة الجزائر.

وفي سنة 1836م حاول الماريشال كلُوزيل ان يحتلّها فقاومه أحمد باي وردّه على أعقابه ثم جاء الجنرال دامريمون Damremont في 6 أكتوبر سنة 1837م وحاصر قسنطينة وقُتل أثناء الحصار في 12 أكتوبر بجبهة كُدْية عاتي.

وتولّى القيادة بعده الجنرال فالي Vallée في 13 أكتوبر، وتمكّن من احتلال المدينة بعد قتال عنيف، وخرج عنها أحمد باي إلى الصحراء وحارب فرنسا مدّة 11 سنة إلى أن أُسر ومات سجينا بالجزائر رحمه الله.

ودخلت قسنطينة إثر ذلك تحت الاحتلال الفرنسي وحكمت حكما عسكريا من سنة 1837 إلى سنة 1848 ثم تحوّل إلى حكم مدني.

هذه نظرة عامة حول تاريخ قسنطينة منذ القديم إلى عهد أحمد بن المبارك بالقرن التاسع عشر الميلادي وقد لاحظنا أهمية هذه المدينة وبعض الأطوار التي مرّت بها.

- تاريخ أحمد بن المبارك:

إنّ تاريخ أحمد بن المبارك الذي قدّمنا له بهذه الإلمامة السريعة هو خُلاصة مُوجزة عن بعض أحداث قسنطينة جمعها المؤلف حوالي سنة1852م كما أشرنا إلى ذلك في بعض

التعاليق، وهو يبتدئ من العصور القديمة إلى ولاية حسين باي بن صالح باي الذي قُتل مخنوقا سنة 1809م.

هذا من ناحية الترتيب التاريخي، أمّا من وجهة تنسيق الكتاب فإن المؤلف ينهي أحداثه بمقتل صالح باي سنة 1792م في بعض النسخ، وبترجمة أحمد القبائلي في بعضها الآخر.

والملاحظ أنّ تاريخ أحمد بن المبارك يعوزه التّنسيق الزمني في سرده للأحداث، فنجد فيه تقديم هذا الباي على ذلك ولو تأخر عنه زمنيا، كما فعل في تأخير ترجمة صالح باي عن ولده حسين باي وفي حذف كثير من البايات، ولعلّ علّة ذلك أنّ ابن المبارك لم يرد أن يجعل من تأليفه تاريخا لقسنطينة، وإنما أراد أن يُسجّل تقاييد حول أهمّ الأحداث التي مرّت بها المدينة، وأن يُشيد بحصانتها وبقوتها على الدّفاع، وهذا ما يجعله يقفز في سرد الأحداث من فترة إلى أخرى.

خلاصة الكتاب: وإذا تصفّحنا مخطوط أحمد المبارك فإنّنا لا نجد فيه عناوين لأبحاثه، وأهم هذه العناوين التي اخترناها له هي:

1- ذكر من بنى قسنطينة واختلاف الروايات في ذلك، وذكر حصانتها.

2- ذكر سورها ومائها الذي كان يُجلب إليها من عين بومرزوق[1].

1- أحمد المبارك تاريخ قسنطينة نشر الأستاذ نور الدين ص 8.

3- عدم اهتمام المسلمين بتحصينها[1] وذكر من غزاها وأوّلهم أبو عِنان في القرن الثامن الهجري[2]، ومُراد باي الذي هاجمها سنة 1112هـ[3]، وحمودة باشا الذي هجم عليها سنة 1221هـ[4] وذكر سبب بناء قلعة المنصورة في أوّل عهد دخول الأتراك قسنطينة، ثمّ ذكر بعض بايات قسنطينة وتاريخ ولايتهم، وألحق بهم ترجمة الشّيخ فتح الله، وأحمد القبائلي الثّائر بها.

وهؤلاء البايات هم:

حسين كلياني (ص 19)

حسن باي بوحنك (ص 20)

حسن باي أزرق العينين (ص 22)

أحمد باي القُلّي (ص 24)

صالح باي (ص 226)

ترجمة الشّيخ فتح الله (ص 29)

أحمد القبائلي (ص 30)

وخلاصة ما تضمّنته موضوعاته بإيجاز: أن أحمد ابن المبارك ألّف كتابه هذا نزولا عند رغبة بعض الفُضلاء الأعلام رغم عدم وقوفه على تاريخها لأحد من الأعلام،

1- المصدر السابق ص 9.

2- المصدر السابق ص 11.

3- المصدر السابق ص 12.

4- المصدر السابق ص 14.

ويريد بذلك تاريخها القديم، أمّا تاريخها في العصر التركي فقد سبقه إلى ذلك صالح العنتري الذي ألّف كتابه وأخرجه سنة 1846م.

ثمّ ذكر أنّه وقع خِلاف في أوّل من بنى المدينة، هل هو قسنطنطين أو غيره؟ ورجّح أنّها بناها من بنى قرطاجنة، وأنّها حصينة لم تُقهر منذ القديم، وأنّها غير مبنية على سور وسبع قناطر على البلد، واحدة على الوادي، وكان يجلب إليها الماء من وادي بومرزوق، وكان بها بُرج حِراسة وعليها طِلَسَم يحرسها من الغزاة.

وقد غزيت 80 مرّة بدون جدوى، ولمّـــا هدم ابن عيسى هذا الطِلَّسم بأمر الحاج احمد باي سهّل على الأعداء بعد ذلك غزوها واحتلالها.

وذكر أن المدينة كانت مُحصّنة في القديم قبل الإسلام، وفي العهد الإسلامي أهملها الملوك المسلمون فضعفت حصانتها وزادها ضعفا مُشاغبة البربر لها بقيادة الكاهنة التي هدمت بعض قناطرها "ولم يتجدّد لها بنيان ولا تحصين سوى بنيانها الأول".

- غزاة قسنطينة في مختلف العهود

- ذكر ابن المبارك أشهر الغزاة الذين هاجموا قسنطينة، ثمّ رجعوا عنها مدحورين في العهد الإسلامي وأولهم:

- أبو عِنَان المريني: (752هـ-759هـ) الذي غزاها ورحل عنها ولم ينل منها شيئا، والواقع أنّه دخلها صُلحا وولي عليها واليا من قبله.

- مُراد باي التونسي: وغزاها سنة 1112هـ وانهزمت جيوشه أمام أسوارها هزيمة منكرة.

- الشريف بن الأحرش: وغزاها الشريف بن الأحرش سنة 1804م بدون جدوى.

- حمودة باشا: وغزاها أيضا حمودة باشا سنة 1806م بدون فائدة، ثمّ استطرد المؤلف إلى ذكر بناء قلعة المنصورة في أوّل العهد التركي وقد هدمها مُراد باي في غزوته المذكورة.

ولم يستطيع أحد من هؤلاء الغزاة رغم محاولاتهم الكثيرة أن يحتلها قهرا حتّى جاء الجيش الفرنسي سنة 1873م وحاصرها حصارا شديدا فاحتلها عنوة.

- بداية نفوذ الأتراك

وعاد ابن المبارك إلى ذكر بداية نفوذ الأتراك بقسنطينة بعد إخضاع العرب بنواحيها وقد جرت بين الفريقين وقائع كموقعة وادي القُطن بين ميلة وقسنطينة وفيها اصطلح الفريقان على أن يكون الترك بقسنطينة ويكون تصريف الوطن بينهم أثلاثا: ثلثه لابن علي شيخ العرب، وثلثه لشيخ الحنانشة، وثلثه للحاكم التركي، وتعاهدوا على هذا واصطلحوا عليه ومن ذلك بقيت العادة

إلى وقتنا هذا (أواخر العصر التركي)، إنّ الباي إذا أتته خلعة الولاية من الجزائر يلبسها هو الأوّل، ثمّ يبعث بها إلى شيخ العرب، وبعده إلى شيخ الحنانشة، ويعرف وظيف العرب بوظيف القفطان لأن ولايتهما كولاية الباي".

وبعد هذا الاتّفاق اختلف أهل قسنطينة حول التّسليم للترك وعدمه؛ فمنهم من أذعن لهم كابن الفكّون وأتباعه ومن خالف كالشّيخ عبد المؤمن، ونجد في تاريخ صالح العنتري رسالتين من باشا الجزائر إحداهما بعث بها لابن الفكّون والأخرى لسكان المدينة وفيها تبنى عليهم وعلى مناصرتهم للترك.

ثم يذكر أنّ ولاية قسنطينة كانت لأولاد فرحات باي سنة 1062هـ/1651م وجاء بعده علي خوجة وغيره، ولمّا عجزوا عنها جاء حسين كلياني إليها من الجزائر "وهو الذي بنى الجامع الأعظم "بسوق الغزل" الذي صار كنيسة بعد الاحتلال".

وأغفل ابن المبارك ذكر ولاة المدينة قبل هذا التّاريخ؛ أي منذ سنة 926هـ إلى سنة 1062م لأنّ تاريخها يسوده غموض كبير، وتبعيتها لم تخلص للترك وحدهم بل كان ينازعهم فيها الحفصيون، ولم يقف ابن المبارك ولا صالح العنتري على وثائق تساعدهما على الكتابة عن هذه الفترة المظلمة.

ثمّ ذكر ابن المبارك بعض البايات المشهورين كحسين باي بوحنك (المتوفي سنة1149هـ/1736م) وهو الذي بنى "الجامع الأخضر"، وحسن باي أزرق العينين، والحاج القلّي جدَ الحاج أحمد باي 1170هـ-1185م وصالح باي الشّهير الذي بنى جامع "سيدي الكِتّاني" وديار الشارع، وغرس البساتين وعمّر الوطن، وبنى القنطرة ودامت قسنطينة في حكمه 22 سنة حتّى قُتل سنة 1792م.

وإبراهيم بوصباع الذي جاء إلى قسنطينة ليخلف صالح باي ففتك به هذا، وجاء بعده حسن باي وهو خلفه الآخر وفتح قسنطينة وقتل صالح باي، ثمّ يذكر أخيرا ترجمة الشيخ فتح الله الذي قتله أحمد القبائلي الثائر بقسنطينة سنة 1223هـ-1808م، ثمّ يذكر ترجمة هذا الثّائر وبذلك ينهي تاريخه الموجز.

ومن هذه الخلاصة يستطيع القارئ أن يقف على أهم الموضوعات التي عالجها أحمد بن المبارك، وأن يتبيّن ما يمتاز به كتابه عن كتاب صالح العنتري كعنايته بالتاريخ القديم، واتجاهه إلى تسجيل الأحداث الكبيرة التي مرّت بهذه المدينة أكثر من غيرها، وإيجازه في تصوير الوقائع وإغفاله للتنسيق التّاريخي فيما كتبه في تاريخ المدينة في العصر التركي وقبله.

وأمّا معاصره صالح العنتري فإنّه خصّ كتابه تاريخ قسنطينة بتاريخ البايات فيها منذ دخول الأتراك إلى انقراض

دولتهم من الجزائر، وأضاف إلى ذلك تاريخ الولاّة الفرنسيين على المدينة، وأفاض في الحديث عن البايات والأحداث التي وقعت في عصرهم وفي الولاة الفرنسيين.

ويمتاز تاريخه عن تاريخ ابن المبارك بالتنسيق وباستيعاب الأخبار، وبالموضوعية وتفصيل الأحداث التي وقعت في عهد أحمد باي وأوّل الاحتلال.

أمّا الأسلوب فإنّ المؤرخين يشتركان معا في أسلوب ضعيف مشوب بالألفاظ العامية وكلاهما يستهدف المعنى ولا يهتمّ بجمال العبارة.

والكتابان معا يُعدّان مرجعين أساسيين لتاريخ المقاطعة القسنطينية على عهد الأتراك لا يستغني عنهما باحث ولا قارئ.

إعادة طبع الكتاب: لقد طبع كتاب تاريخ قسنطينة للمترجم أولى طبعاته سنة 1952م بتعليق وتصحيح الأستاذ نور الدين عبد القادر، ونفذت نُسخه من السّوق، واشتدت رغبة القُرّاء والدّراسين إلى إعادة طبعه واستحثني باعث إحياء التراث الوطني على الإسراع بتحقيق هذه الرغبة.

فبحثت عن النّسخ التي ينبغي الاعتماد عليها فوجدت نسختين: نسخة الرباط، ونسخة المكتبة الوطنية بالجزائر.

أمّا نسخة الخزانة العامة بالرباط وهي تحمل رقم (709) من مجموع فيه تاريخ صالح العنتري، فهي تبتدئ من صفحة 244 إلى صفحة 330 ومسطرتها 12 ومقياسها 190/245.

وخطّها مغربي جيِّد إلاّ أنّها لا يوجد فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ وقد رمزت إليها بالحروف (نخ ب).

ونسخة المكتبة الوطنية، وهي تقع في مجموع يحمل رقم 1645، وتبتدئ من الورقة الأولى إلى الورقة 30 وألحقت بها ترجمة الشّيخ فتح الله وأحمد القبائلي كما في نسخة الرباط.

وخط النسخة والمجموعة مغربي جيد، وسطورها 12 ومقياسها 210/136، وقد فرغ من نسخها عام 1269هـ /1852-1853م، وهي تمتاز عن الأولى باشتمالها على تاريخ النسخ، ورمزت إليها بالحروف (نخ أ) وهاتان النسختان هما الأصلان اللّذان اعتمدتهما في تصحيح تاريخ ابن المبارك، وأضفت إليهما النسخة المطبوعة واعتبرتها كأصل يرجع إليه أحيانا وقد ذكر بروكلمان في ملحقه (ج2 ص688): "أنّ الأستاذ دورنو نقل هذا التّاريخ إلى الفرنسية كما نقل تاريخ صالح العنتري.

وفي الخِتام أرجو من الله أن يجعل صدور هذا الكتاب بداية حسنة لنشاط فعّال يستهدف إحياء تراثنا القومي الجليل، وأن يكون مساهمة جادّة منا في خدمة ثقافتنا الأصلية، وأن يأخذ بأيدينا في مواصلة جهودنا لتعزيز هذه البادرة الطيبة بسلسلة من المخطوطات النّادرة نعتزم تحقيقها وإصدارها تِباعًا ونسعى بجدٍ وإخلاص إلى تقريب منالها من عقول

ناشئتنا الواعية، حقّق الله آمالنا، وسدّد في هذا المسعى خطانا إنّه ولي الهداية والتّوفيق، لأقوم طريق.

تاريخ بلد قسنطينة

للشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطّار

(1870 – 1790)

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد وآلــه

هذا تأليف

الشّيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطّار[(1)]*

تاريخ بلد قسنطينة

الحمد لله الذي لا يدوم إلاّ ملكه، ولا يجري في بحر المقادير إلاّ فُلكه. حمدا يصلح لنا العمل إلى بُلوغ الأجل ويبلغنا الأمل في غيرِ محنة ولا وَجل[(2)]. والصّلاة والسلام على سيِدنا محمّد وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والرسل.

وبعد؛ فقد سألني بعض المحُبِّين رزقني الله وإياه خير الدّارين أن أُقيّدَ له بعض أخبار قسنطينة فأجبته بقُصوري عن إدراك هذا المرام لعدم وُقوفي على تاريخ لها لأحد من العلماء الأَعْلام فاكتفى مِني بالنّزر القليل مِمّا يسمع من

1 *- يقول الحفناوي في ترجمته لابن العطار: "العلاّمة الشيخ أبو العبّاس أحمد بن محمد المبارك كان وقّاد القريحة، بديه الادراك، واسع الفكر، عريض الفهم والإدراك، أسندت لعهدته رئاسة الطريقة الشاذلية فساسها على متون الشريعة وهذّبها بنصائحه المفيدة .درّس وألف مؤلفات في شمائل الرسول ومعجزاته، وله حاشية على شرح الأخضري لجوهره المكنون مفيدة في بابها، وعارض عدّة قصائد في مدح خير البريّة. أخذ عن العبآسي وغيره و الأول عمدته، ووِلّي مفتيا للمالكية والخطابة بالجامع الكبير"، تعريف الخلف برجال السلف، نشر مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة الطبعة الثانية 1985ج2 ، ص: 78.

2- وحل: وَجِلَ يوْجَلُ وَجَلاً: خافَ أو استشعر بالخوف.

النّاس جيلا بعد جيل فأجبته إلى مُراده لعلمي بمحبّته ووِداده.

أقول:اختلفتِ الأقوال فيمن بناها؛ فقيل بناها قسطنطين[1] الذي بني قسطنطينة العُظمى التي اسمها اليوم اسلانبول[2]؛

1- قسطنطين قيصر رُماني حكم من سنة 306 إلى 337 ميلادية وهو الذي أقر الديانة المسيحية للإمبراطورية الرومانية عام 313 ميلادية

ينسب إليه أنّه هو الذي جدّد بناء مدينة قسنطينة فسُميت باسمه وكان قبل ذلك تسّمى "قِرطه" فحرّف الرومان اسمها الفينيقي إلى "سيرتا" بكسر السين وتسكين الرّاء ولعلّ السبب يعود إلى خصوصية الحروف الصائطة اللاتينية وهي كما نعرف خمسة وتسمّى les voyelles بعضها حادّ النّبر أو كما يقول الخفاجي في كتاب الفصاحة الشديد والرخو، مثل a وu و o وبعضها ضعيف النّبر(رخو) خفيف مثل: e و i، ومن هناك فإنّ الحروف المرافقة يتغيّر نطقها بحسب اجتماع الصائت الخفيف مع الحرف مثلا: فحرف « c » رفقه الصوائت الخفيفة يكون نطقه « ci » سِ و « ce » سَ أمّا مع الثقيلة فيكون نطقه « ca » كَ « cu » كُ الخ... ومن هنا جاء التحريف الروماني لِقرطة بسيرتا.

2- اسلانبول هي القسطنطينية وبدون تعريف واسمها باللغة التركية اسلامبول أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام، والآستانة بالمدّ وكسر السين ويحذف المدّ وتحذف أيضا أداة التعريف: استانة بكسر الهمزة وتسكين السين، وتُسمى أيضا اسطنبول ودار السعادة – مدينة تقع على ضِفتي البوسفور وهي بيزانطا القديمة أسّسها الإغريق الأقدمون في القرن السابع قبل الميلاد، جعلها قسطنطين من عواصم الإمبراطورية الرّومانية بعد أن أسماها باسمه "القسطنطينية" سنة330 ميلادية ثم أصبحت عاصمة الإمبراطورية البيزانطية التي فتحها الأتراك العثمانيون سنة1453 ميلادية وفيها استقرّ السلاطين. وأهل الجزائر يُسمونها "اصطنبول" بتسكين الصّاد وفتح الطّاء وتسكين النّون.

وهي المسماة بلغتنا اصطنبول، وقيل بناها عامله على وطن إفريقية ونسبها إليه لكونه تحت طاعته، وقيل غير ذلك؛ والصّحيح أنّها مدينة قديمة بناها الذي بنى مدينة قرطاجنة[1] التي كانت بقرب تونس؛ وبها كان كُرسي[2] إفريقية. فقد ذكر أصحاب التاريخ أنّ قرطاجنة بُنِيت في زمن عاد[3] قبل إبراهيم الخليل عليه السلام يشهد لهذا القول أنّنا نسمع من أهل العِلم: "أنّ قسنطينة من زمن إبراهيم وهي عامرة لم تطفأ لها نار ولا دخلها عدو قهرا".

وكانت في سالف الزمان تُسمّى بالحِصن الإفريقي، يُضرب بها المثل في التّحصن لكونها مبْنية على جبل، والهواء مُحيط بها من كلِّ جِهة كدَوَران الخاتم في الإصبع، غير أنّ جهة الغرب منها بنوا لها أقواسا[4] بالحجارة العظيمة بصنعة مُتقنة وهندسة عظيمة وارتفاع هائل، وطمسوه من الأعلى وردَمُوه حتّى صار أرضا يدخلون عليها للمدينة، بل يقولون:

1- قرطاجنة عاصمة القرطاجيين بتونس أسست عام 825 قبل الميلاد ومعناها بالفينيقية المدينة الجديدة.

2 - المقصود بكرسيّ إفريقية أي عاصمة الحكم أو قاعدة المملكة.

3- قوم عاد: أمة قديمة كانت تسكن أرض العرب، والعادي يُطلق على القديم. وقوم عاد من الأقوام التي ورد ذكرها في القرآن...

4- أقواسا جمع قوس وهو البناء الذي على هيئة القوس ويُسمى أيضا بالحنية بفتح الحاء وكسر النون وتشديد الياء.

إنّ المدينة كلّها مبنية فوق أقواس، وبناء عظيم من القصبة إلى باب الوادي؛ فقد شاهد بعض النّاس ذلك ودخل من داموس بالقَصَبَة وسار يمشي من قوس إلى قوس، ومن مدْخل إلى مدخل إلى أن خرج من تحت باب الوادي من باب صغير كان هناك يُسمّى: بباب البلد أدركناه وشاهدناه مَسْدودا. وقولهم أنّ المدينة كلّها على الفراغ لا يَصِحُ لأَننا شاهدنا بعض المواضع منها إذا حَفَروا ظهر الجبل، فإذا أرادوا بنيان بئر أو ساقيه لماء المطر وأزبال أهل المدينة كسروا الجبل بالبارود والمعاول. والغالِبُ على ظنّي أنّ بالجبل شِعابا ومواضعَ مُستقلّة، فلمّا أرادوا بناء المدينة فوقه بنوا بتلك الأماكن أقواسا ودَمَسُوا[1] عليها حتّى استوت لهم الأرض فبنوا عند ذلك المدينة.

ومن حُسنها أنّه كان بها سُور عظيم مُحيط بها من كلِ ناحية انهدم لطول زمانه ومرور الدُهور عليه، وقد بقيت آثاره إلى اليوم[2].

وكان بها سبع قَناطر: ستّة على البلد، وواحدة على الوادي، كلّها انهدمت واندثرت إلى زمان صالح باي[1].

1- دمسوا: أحفوه وغطوه.

2- إلى اليوم إشارة إلى زمن مؤلف الكتاب أحمد المبارك بن العطّار أي إلى غاية وفاته سنة 1870م.

جدّد بناء القنطرة الموجودة اليوم[2]. واختُلِف في سبب هدم القناطر: قيل انهدمت بسبب طول الزّمان واستيلاء الخراب على المدينة، وقيل بل هدمها البرابر في زمان كاهنة البرابر[3] كما سنذكره والله تعالى أعلم.

وكان الماء بداخلها جُلِبَ من راس عين وادي بومرزوق[4] بصنعة عظيمة، وساقية بديعة تحت الأرض، بهندسة وميزان، فإذا وجدوا موضعا عاليا سلكوا بجانبه، وإذا

1- صالح باي وُلد في مدينة أزمير بتركيا من أب تركي اسمه مصطفى وذلك سنة 1739م تقريبا عاش سنواته الأولى حياة عادية وفي عام 1755م تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ فهجّر إلى الجزائر تفاديا للعقاب، واشتغل في أحد مقاهي الجزائر... تولّى حكم مدينة قسنطينة سنة 1185هـ ودامَ إلى سنة 1206هـ الموافق 1771م-1772م أنظر كتاب العنتري: تاريخ قسنطينة مراجعة وتحقيق وتعليق د.يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص:62-65.

2- القنطرة الموجودة اليوم المقصود بها جسر القنطرة حيث استقدم مهندسا إسبانيا من ما هون بجزر البليار يدعى دون بارتلوميو. العنتري: تاريخ قسنطينة ص:65.

3- كاهنة البربر هي الكاهنة ملكة الأوراس والتي تصدّت للزحف الإسلامي بقيادة حسان بن النعمان إلى أن قتلت بالموضع الذي يقال له بئر الكاهنة في حدود سنة 83 هجرية أنظر تفاصيل عنها في كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدّباغ الجزء الأول ص: 61 إلى 67.

4- وادي بومرزوق: هو نهر يصب في نهر الرّمال بقسنطينة، ويلتقي مع وادي الرّمال جنوب مدينة قسنطينة، وعين بومرزوق هي العين التي كانت تزود سكان قسنطينة منذ العهد الروماني ولا تزال بعض أحياء قسنطينة تتزوّد من نبعها إلى يومنا هذا .

وجدوا موضِعا مُنخفضا بنوا له أقواسا من الحِجارة العظيمة يمشي الماء فوق الأقواس، وهكذا حتّى دخل إلى المدينة، قيل إنّما سُمِيَّ الموقف بهذا الاسم لوصول الماء إليه، وقد أدركنا أقواسا بهذا الموضع في غاية الإتقان[1].

ولما انقطعت مادّة الماء واندثرت مجاريها بنوا سُورا من أسفل باب الجابية[2] إلى الموضع الذي يدخل منه النّهر بين الجبلين، ودمسوه[3] من الأعلى ببناء مُتقن وهندسة مُحكمة بِحيث لا يُصيب الماشي به كور[4] ولا رصاص ولا ضرر من العدوِّ وجعلوا بداخله طريقين: طريق يهبطون عليه حتّى يَصِلوا إلى الماء، وطريق يصعدون منه لئلا يزدحموا، ولم يزل يُسمَى بالحنيِشة[5] إلى أن هدمها صالح باي بإذنٍ من حاكم الجزائر[6] والله تعالى أعلم.

1- يشير إلى الأقواس الرومانية التي ما تزال آثارها وفوقها يصل الماء من عين بومرزاق إلى المدينة، والأقواس جمع قوس وهو البناء الذي على هيئة القوس ويُسمى أيضا بالحنية بفتح الحاء وكسر النون وتشديد الياء.

2- أحد أبواب قسنطينة الجنوبية الغربية، والجابية الحوض؛ أي بناء يجمع فيه الماء.

3- دمسوه أي أخفوه بالبناء.

4- كُور واسم الواحدة كورة بضمّ الكاف وفي اللّغة الفصيحة كُرةٌ وهي كل جسم مستدير والمقصود هنا كور المدافع. أمّا الكورة فهي القطر أو العمالة أو الولاية.

5- الحنيشة تصغير حَنَش وهو الحيّة وقد أخذ هذا الطريق الصغير صفته من الحنش لالتوائه.

6- حاكم الجزائر آنذاك هو الداي حسن باشا الذي عزل صالح باي في أوت 1792م.

وكان بها من جهة الغرب بُرجٌ(1) بقيت منه بَقِيَّةٌ إلى اليوم، ويُعرف بِأسَوس(2) قالوا كان في غاية العُلوّ والارتفاع في جوِّ السماء فإذا صعدوا إلى أعلاه بفنار(3) ينظره أهل بِجاية(4).

وبها سُور آخر أسفل الجبل أعلى الماء الحارِّ منْ ناحية الجَوْف يُعرف بباب الرّوَاح(5) بَقيَ اليوم أثره وبه بعضُ كُوّاتٍ(6) للمكاحل(7) وهو -والله أَعْلَمُ- من بَقايا الملوك

1- برج جمع أبراج وهو عبارة عن محْرس يكون بسور المدينة وغالبا ما يكون قرب أحد أبواب المدينة الرئيسة.

- اسم برج المراقبة ولعلّها تسمية بربرية أو من ساس يسوس يعتني ويُراعي شؤون المدينة. وقد 2 Dournonرأينا تسمية قديمة لهذا البرج في رواية المؤرخ الواقدي مسميا إياه صومعة.وقال مترجم كتاب تاريخ بلد قسنطينة لابن العطار:" أسوس Ce bordj était en relation avec une construction analogue située sur la montagne de Sidi Makhlouf au Chattaba. Il pouvait ainsi surveiller bien loin les environs de la ville.La nuit les soldats du bey communiquaient par des signaux de feu avec les factionnaires de Sidi Makhlouf(Revue Africaine ;1913,p :271

3- بفنار من فنر فنارات: المشعل للمنارة قرطاس أو نسيج يُجعل كالأنبوبة وفي رأسه بُلبلة تُركز فيها الشمعة وتوقد ويُحمل من مكان إلى آخر ولا تصيب الرّيح الضوء الذي فيه.

4- بجاية مدينة تقع على الساحل الشمالي كانت قديما عاصمة حضارية وخاصة زمن الدولة الحمّادية .

5- باب الرّواح أحد أبواب قسنطينة والرّواح يعني المغادرة مثل قول الشاعر الأموي الرّاعي النُّميْري يا صاحبيًا دنا الرّواحُ فسيرا... ولعلّه الباب القديم الذي سمّاه الواقدي باب سيطارج.

6- كوّات جمع كُوة منفذ صغير في الحائط على شكل نافذة.

الحفصيِّين[2] لأنَّ الأوَّلَ ليس يَعْرِفون المكَاحِل والمـدَافع وإنَّما آلةُ حربهم السَّيف والرُّمح والنَّبل لا أسويغير.

ويُقال أنَّ حُكماءَهَا الأوَّلين العارفين بموضع الطلاَمسِ[3] وعلم النُّجوم جعلوا بباب الوادي[4] رصْداً[5] لا يدخُلها عدوّ وقد وَجَدْتُ مُقَيَّداً[6] على ظهر كِتَاب: "غُزِيَتْ ثَمانينَ مَرّةً فلم يدخلها عدوّ، ولا نال منها شيئا لِرصْدٍ بها من عَمَلِ الحكماء" وهذا الرَّصْدُ، والله أعلَمُ، سُور كان داخل بَاب الوادِي هدمه ابن عيسى[7] بأمر الحاج أحمد باي[8] بعد

1- المكاحل هي البنادق التي تُطلق البارود.

2- الملوك الحفصيين.أنظر، دراسات في الأدب المغربي القدم ص 63

3- الطلاسم جمع طلسم خطوط أو رموز يستعملها الساحر ويزعم أنّه يدفع بها كل مُؤذٍ.

4- باب الوادي هو أحد أبواب قسنطينة السبعة.

5- رصدا رقيبا وفي سياق النّص تعني طِلسما.

6- مقيدًا مُسجّلا أو مكتوبا أو مرقومًا أو منقوشا.

7- ابن عيسى هو باش حانبة في عهد أحمد باي وهو الذي قاد الحملة ضد إبراهيم باي حين لجأ إلى عنابة وكان رفقته في العِمارة الآغة ابن الحملاوي. وكما يذكر العنتري كان بين ابن عيسى وبين حاج عمار بن زقوطة قائد المخزن عداوة. أنظر تفاصيل ذلك في كتاب تاريخ بايات قسنطينة ص:97.

8- الحاج أحمد باي تولى حكم بايلك قسنطينة ثلاث مرّارت الأولى فيفري 1818م والثانية 1820–1822 والثالثة والأخيرة ما بين 1826 إلى 1837 تاريخ سقوط مدينة قسنطينة بيد الاحتلال الفرنسي أنظر تفاصيل أكثر في تاريخ بايات قسنطينة للعنتري ص: 85 إلى 103.

أن ذهب الجُند "الفرَانصَوي"[1] الذي أتى به الجنرال يوسف[2] حين كتب الله دُخول الجُند الفرانصوي المرَّة الأخيرة؛ وهذا السّور يعرفه النَّاس كلَّهم، وإنّما انهدم منذ خمسة عشر سنة ونحوها[3].

والحاصل أنّ البَلَدَ[4] كانت في غاية التّحصين الذي لا يَقْدر عليها بِسَببه عَدُوٌّ وإنّما اندثر ذلك لعدَمِ اعتِناء الملوك الإسلامِيين بالتَّحصين والبناء مع أنّهَا في بلد البرابِر وفسادُهم مَشهُور في الوَطَن الإفريقي.

ذكر صاحب المؤنس في أخبار مُلُوك تونس[5]: "إن الوطن الإفريقي كان مُتَّصِلَ العِمَارة بالمدائن والقُرى والبساتين بحيث أنّ المسافِرَ لا يسير نصف يومٍ في موضع خالٍ من العِمارة، ولا يَبِيتُ إلاّ في مدينة أو قرية"[6]، وإنّما

1- الفرانصوي، أي الفرنسيين.

2- لعله يقصد الجنرال الفرنسي Joséf. من أصل إيطالي اشتهر في حروب الاحتلال الفرنسي لمقاطعة قسنطينة.

3- الصحيح منذ خمس عشرة سنة وفي هذا دلالة على تاريخ تحرير كتاب تاريخ مدينة قسنطينة أي حوالي سنة 1852 وكان دخول الفرنسيين إليها سنة 1837م.

4- إنّ البلد كانت، البلد اسم مذكر في اللّغة العربية الفصحى.

5- صاحب أخبار المؤنس هو ابن دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرُّعيني مؤلف كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس؛ تحقيق محمد شمام. المكتبة العتيقة، تونس 1387 هـ

6- ابن دينار: المؤنس ص:14.

سبب خَراب هذه البُلدان الكَاهِنة التي وعدنا بذكرها، وذلك أنّه لمّا قَدِم جيشُ المسلمينَ مع الأمير حسّان بن النّعمان الغسّاني[1] ذكر بعض المـــؤرّخين عن عبد الرّحمان بن زياد[2]، أنّه قال: "كانت إفريقية من طَنْجة إلى طَرَابلُس ظلاً واحداً وقُرىً مُتّصِلة عَامِرة" فأخْربت[3] جميع ذلك الكَاهنة.

وذلك أنّ أمِير المسلمين حسّان المذكور لمّا فتح قَرْطاجِنّة[4] وتونس[5] وهزم البرابر هزمة شنيعة، وهربوا

1- الأمير حسان بن نعمان الغسّاني بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان أميرا على إفريقية في سنة تسع وستّين هجرية (69هـ) في جيش قِوامه ستة آلاف، وهو أوّل من دخل إفريقية (تونس) من أهل الشّام في زمن بني أميّة. أنظر تفاصيل أكثر عن مغازية في كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. للدبّاغ، ص: 60-61. أمّا ما ذكره رابح بونار في هامش صفحة 35 فهو غير صحيح.

2- توفي عبد الرحمان بن زياد سنة 161 هجرية الموافق 777 ميلادي بعد فتح طارق بن زياد للأندلس الذي كان عام 771 ميلادية.

3- الصحيح فخرّبت كلّ ذلك.

4- قرطاجنة ومعناها بالفينيقية المدينة الجديدة.

5- تونس يقول ابن دينار... وذكر غير واحد أن لها خمسة أسماء: ترشيش وتُونس وقيل تانس. والحضرة والخضراء والدرجة العَليّا. فترشيش اسمها في القديم وتونس حادث لها واشتقاقه من التّأنيس، والحضرة لأنّها حضرة السلاطين من بني حفص والخضراء لكثرة زيتونها... أنظر تفاصيل أكثر في كتاب المؤنس لابن دينار، ص10 والدكتور عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، ص: 64-65.

إلى بَرْقَةَ[1]، ورجع هو إلى القيروان[2] سأل: هل بقيَ أحدٌ من البَرَابِرِ له شوْكة قَوِيّة، فقيل: امرأةٌ ساحِرة يُقال لها الكاهنة؛ وهي بَجبَل أوراس[3] في عدد عظيم، فسار إليها والْتَقَى الجمعان، واقتتلوا قتالا شديدا مات من العرب خَلْقٌ كثيرٌ، وانهزم حسّان واتْبعته الكَاهنة إلى أن وصل إلى قُرب طَرَابُلس[4]، وذلك في خِلافة عبد الملك بن مروان[5].

1- برقة مدينة ليبية تقع في الشمال الغربي من ليبيا.

2- القيروان: يُقال إنّه اتفق لعقبة بن نافع الفِهري حين وضع القيروان كرامات وإجابات مشهورة؛ منها ما رواه عُلماء أهل التاريخ أن عقبة رضي الله عنه لما غزا إفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان وذلك سنة خمسين من الهجرة (50هـ). وقتّل من كان بها من الرّوم وأصناف البربر والأفارقة، قال لأصحابه: إن إفريقيَة إذا دخلها أميرٌ تحرّم أهلها بالإسلام، فإذا خرج منها رجعوا إلى الكُفر، وإنّي أرى أن أتّخذ بها مدينة نجعلها مُعسكرا وقيروانا تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدّهر؛ واختُلِفَ في لغة العرب في لفظ القيروان فقيل هي موضع احتماع النّاس والجيش، وقيل محطّ أثقال الجيش، وقيل هي الجيش نفسه والمعنى متقارب. أنظر تفاصيل أخرى في كتاب حُسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص:153، كتاب الدّباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ص: 5-9.

3- جبال الأوراس هي التي تقع في الشرق الجزائري.

4- طرابلس ليبيا حاليا.

5- عبد الملك بن مروان (26هـ-36هـ/646م-705م)، هو أبو الوليد، يُعدُّ من العلماء من بين الملوك، انتقلت إليه الخلافة الأموية عام 65هـ، عُرّبت في زمانه الدواوين واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مُصعب بن الزبير وعبد الله بن الزبير، وضُبطت في زمانه الحروف العربية بالنّقط والحركات، وهو أوّل من سَكّ الدّنانير. أنظر كتاب الأعلام للزّركلي، ج5 ص: 312.

وكتب حسّان إلى عبد الملك يُخبره بما لَقِيَ المسلمون من الكَاهنة، فكتب له يأمُره بالمقَامِ حيثُ هوّ حتىّ يأتِيَهُ المــدَدُ، فأقام خمسة أعوام، وملكت الكَاهِنة، في تلِك المدّة إفريقية، وقالت لِقَومِها من البرابر: إنّ العرب يطلبون المدَائِنَ والذّهب والفضّة، ونحن إنّما نطلُب المــزَارِع ولا نرى لكم إلاّ خَرَابَ إفرِيقية ييْأَس منها العرب. وأمرت بِتخريب المدائن وقطْع الشّجر والزّيتون، فخرّبت بَاغَاي[1] وتهودة[2] ونـقـاوس[3] ومُدُنا كثيرة، وجميع الحُصون والقُرى والمدائن. قيل وَحاصرت قَسَنْطِينة وهدمت بعض قنَاطرها ومَعَاقِلها الخارجَة عنها، ولم تقدر على دُخولها – واسمُ هذه الكَاهِنة دَامية بِنْت ينْفاق[4]، وكان لها تابع من الجنِ يُخبرها بما كان، وكانت

1- باغاي أو باغاية مدينة كانت قُرب خنشلة، يقول البكري في كتاب المسالك: "...باغاية مدينة جليلة أولية ذات أنها مزارع ومسارح وعلى مقربة منها جبل أوراس". ص: 50. وهي حصن صخر قديم حوله ربض كبير من ثلاث نواح وليس فيما يلي الناحية الغربية ربض إنمّا يتصلُ بها بساتين ونهر وفي أرباضها فنادقها وحماماتها وأسواقها حوجا معها داخل الحصن، وهي في بِساط من الأرض عريض كثير المياه، وجبل أوراس مُطلّ عليه.." ص: 144.

2- تهودة هي الآن قرية صغيرة بين بسكرة وسيدي عقبة.

3- نقاوس بلدة تبعد بسبعين كيلومترا عن باتنة.

4- ربّما أوّل المصادر التّاريخية التي تذكر إسم الكاهنة "دامية بنت ينقاق" وهي من قبيلة جراوة البربرية. يقول الدبّاغ في معالم الإيمان: "كانت أعلم أهل زمانها بالكهانة" ص:64. انهزمت الكاهنة أمام جيش الفتح الإسلامي بقيادة حسّان بن النعمان بعد أن أمنّت ولديها بواسطة يزيد بن خالد العبسي وقتلت عند بئر سمّاهُ النّاس بئر الكاهنة... ص: 67. وجاء

تنشُرُ شَعْرَ رأسِها وتقول لهم: إنّي أرى هلاَكي بين عُودَيْن، وكانت لمــّا هزمت جُيوشَ المسلمين وأَسرت جماعة منهم مَنَّت عليهم واطلقتهم سِوى رَجُل واحدٍ اسمه خَالد[1] مسكته عندها، وآخَتْ بينه وبينَ وَلَدِهَا، وكانَ العهْدُ عند البرابرِ يجعلون دَقِيقا مَلْتُوثًا بالزَيْت، ويأكله المــُتَعَاهدُون، فَذلك هُوَ العهد. فصنَعت ذلك وأَتَتْ خَالدًا، وولَدَهَا فأكلاه، وجعل خَالِد يذكر مَحَاسِنَ الإسلامِ إلى وَلَدِها ويُرَغّبه في الدّخول إليه إلى أن أسلم وحَسُنَ إسلامه، وجعل ينظره الغِرّة لقتل أُمّه، ثمّ كتبا إلى حَسّان أن يَعْزِم بالقُدوم إليهم بالجيوش، وجعلوا الكِتاب في عُود السَّرْج، وذهب الرّسول بالكِتاب إلى حسّان، فأَتاهم بجنوده واجتمع العرب والبرابر واقتتلوا قِتالا شديدا لم يَعهد مِثله حتىّ ظنّ النّاس أنه الفَنَاء الأكبر،

--في تاريخ خلاصة تونس أن اسمها دهيا بنت ثابت وسماها العرب الكاهنة وكذلك ورد اسمها دهيا في تاريخ ابن خلدون.

1- وردت قصّة أسر خالد بن يزيد العبسي التي ذكرها ابن المبارك في كتاب معالم الإيمان للدبّاغ وجاء فيها: "... وكانت الكاهنة حين أسرت أصحاب حسّان أساءت أسرهم إلاّ رجُلا واحدا وهو يزيد بن خالد العبسي نبذّته الكاهنة، ثم عمدت إلى دقيق شعير مُقلَق فأمرت به فلُتَّ بزيت – والبربر تُسمّي ذلك بَسِيسَة – ثم دعت يزيد بن خالد وابنيها فأمرتهم فأكل ثلاثتهم وقالت لهم: "أنتم الآن قد صرتم إخوة وذلك عند البربر من أعظم العهود في جاهليتهم إذا فعلوه" ص: 63.

وماتت الكَاهِنة وبعث حسّان براسِها[1] إلى عبد الملك بن مروان وهو بدمشق الشّام.

ولم يتجدّد لقسنطينة بُنْيَانٌ ولا تَحْصِينٌ سِوَى بُنيانها الأول لأنّها كانت تحت طاعة المـــلوك، ولم تستقّل بنفسها إلاّ ثلاث سنين اختصّ أميرُها بنفسه ولم يُذْعِنْ بِطاعة لأحد، وباقي مُدّتها تارة تحت طاعة مُلوك مرّاكش من الملثّمين المرابطين والموحدين وبني مِرين[2] وتارة تحت طاعة سلاطين تُونس الحفصيّين إلى أن دخلها الأتراك[3] الجزائريون وسيأتي خبرهم.

1- أختلف في طريقة موتها هل انتحرت أم قُتلت، وهل بعث حسان برأسها إلى عبد الملك؟

2- بنومرين هم فخذ من زناتة من أشرافهم وقد قيل إنّهم شُرفاء ورفع بعض أهل التّاريخ نسبهم الشريف من جدّهم الأمير عبد الحق إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه – حكموا المغرب ما بين 647 هـ – 814 هـ/1350م– 1411م. أنظر كتاب: روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط/المغرب 1962 ص: 8.

3- الأتراك الجزائريون هم الذين جاؤوا مع الإخوة بربروس – أنظر كتاب سيرة المجاهد خير الدين تحقيق عبد الله حمادي، نشر دار القصبة/الجزائر 2009.

ذِكر من غزا قسنطينة

وأمّا من غزاها ووصل خبرُهُ إلينا غزاها أبُو عنان المريني من بونة[1] أبو عنان المريني وحاصرها بِجنودٍ كثيرةٍ وقوّةٍ عظيمة، وقطع عنها النّهر وجعل ماءَهُ يمشي إلى ناحية أُخرى، وحلَّفَ لا يرحل حتّى يدْخلَها، ويجعل عَالِيها سَافِلَهَا، ولمـّا تضرّرَ أهلُها بالعطش لَجَئُوا إلى الولِّي سيدِي علِي بن مَخلُوف[2] وتضرّعُوا بين يديْه فدعا الله تعالى فأرسل مَطَرًا عظيما فَتَقَ سدّ النّهر على عادَةِ مجْراه، ثمّ وقع الصُلح بين الفريقين بأن يدْخُل السُلطان هُوَ وجماعةٌ قليلةٌ من

1- أبو عنان فارس المريني غزا قسنطينة سنة 757هـ وحاصرها تسعة أشهر ،أنظر الناصري: الاستقصاء "ط" الدار البيضاء، بونة هي عنابة الحالية. وناحيتها كانت تسمى بلاد العنّاب لكثرته فيها.

2- أنظر تفاصيل حصار أبي عنان المريني لقسنطينة في كتاب "مدينة قسنطينة في العصر الوسيط لعبد العزيز فيلالي، ص:69 هو أبو الحسن على بن مخلوف أحد رجال التصوف بمدينة قسنطينة

يجب أن نلفت انتباه القراء والباحثين إلى ظاهرة تفشي الأولياء بقسنطينة من مثل:سيدي راشد ـ سيدي لخضر ـ سيدي الكتاني ـ سيدي ميمون ـ سيدي بزار ـ سيدي عفان ـ سيدي بومعزة ـ سيدي عبد المومن ـ سيدي بوعبد الله الشريف ـ سيدي عبد الرحمان القروي ـ سيدي رضوان ـ سيدي بورغدة ـ سيدي بوعنابة ـ سيدي محمد النجار ـ سيدي علي بن مخلوف ـ سيدي سليمان ـ سيدي محمد الغراب ـ سيدي نمديل ـ سيدي الجليس ـ سيدي صفار ـ سيدي بوقصيعة ـ سيدي المبروك ـ سيدي مسيد ـ سيدي بركات...

اتباعه لِيَبَرَّ يَمينه ويذهَبَ عنهم، فدخل هو وخادِم له لاَ غَيرْ وباَت بِهِا ليلة.

ووجد اليهود يسكنون بحومة المزابل[1] فردَّهم إلى الشَارع أسفل القصبة في مقابل قوله يجعل أسافَلها عَاليها ورحل عنها ولم ينل منها شيئًا.

هجوم مراد باي على قسنطينة

وممّا سمعنا به أنّه غزاها مُراد باي بن علي باي[2] حاكم تونس سنة1112 اثنتي عشرة بعد المائة والألف، فخرج من تونس بحدِّه وجدِّه وجمع جُموعا لم تُجمع لغيره، وساق آلةً عظيمة منَ آلات الحرب، من مدافِعَ وغيرِها، فلمّا قرُبَ من قسنطينة تَلَقَّاهُ علي خُوجة باي[3] قسنطينة بجنوده فاقتَتَلُوا قِتالا شديدا وانهزم علي خُوجة واستولى عسكر التَّونسيين

1- هذه المعلومة الدّالة على حارة اليهود بقسنطينة آنذاك وتقع بما سماه حي المزابل ومن المؤكد أنّها حي "السُويْقة" الحالي والمحاذي لجرف وادي الرمال ولا وجود لمعلومات حول تاريخ مجيء اليهود إلى قسنطينة

2- هو مُراد باي بوبالة الذي تولّى حكم تونس سنة 1110 هجري وقُتل سنة 1114 هجري وقد هاجم الجهة الشرقية من الجزائر بعد أن ردّ هديته باشا الجزائر سنة 1112 هجري وجمع جيوشه وسار إلى قسنطينة وهزم صاحبها ثم وردت الأمداد من الجزائر فاعترضها بالعِلْمة وقابلها فهزمته هزيمة منكرة وعاد إلى تونس خائبا وساءت سيرته وأخذ يعيث فسادا في المعالم الإسلامية ويجور في الحكم ويستبيح المحرمات ثم تواطأ عليه الجند وقتلوه.

3- تولى علي خوجة حكم قسنطينة ما بين 1104 هـ و 1112 هـ

على مَحَلّتِه. وسار مُراد باي[1] حتّى وصل قسنطينة فحاصرها خمسة أشهُر، ولَحِقه بها خَليل باي طرابلُس، وخَرَق القلعة التي بناها الأتراك بالسّطحة المنصورة[2]، وبعث مَدافعها إلى تُونس، واشتدّ حمقهم[3] على قسنطينة، وضيّقوا عليها وأهلها يُقاتِلون من داخلها، وطال الحِصار عليهم.

ثمّ خرجت محلّةُ الجزائر لِنُصْرة قسنطينة والدّفع عنها. فلمّا سَمِع مُراد بَاي بِقُربها منه رحَلَ إلى قسنطينة وتلقّى مَحلّة الجزائريين. فنزلت محلّته بِجَوامِع العِلمة[4] وجاءت محلّة الجزائر، وبُنِيَتْ الأخْبية[5] مع محلّتِهِمْ. ودخل الجزائريّون جامعًا هُناك، ووضعوا كتاب البُخاري،وكتاب الشّفاء[6] ومُصحف القرآن العَظيم وتَحَالَفُوا[7] أنّه لا يَهرب أحدٌ ولا يخُون ولو بَقِيَ وحده. فلما طلع النّهار وقع القتال واشتدّ حرب الجزائريين، فلم يكن غير ساعة حتّى انهزم مُراد

1- يريد بمراد باي هذا هو مراد باي بوبالة الذي تولى حكم تونس سنة 1110 هـ .

2- بسطح المنصورة.يقصد المضبة المقابلة للمدينة من الجهة الجنوبية

3- حمقهم: طيشتهم وحنقهم ويريد به هنا حرصهم .

4- مدينة تقع قرب سطيف بالشرق الجزائري .

5- جمع خباء وهي السّرادقات .

6- للقاضي عياض .

7- أدّوا القسم فيما بينهم .

باي، وترك جُنوده وعساكره وأمواله وجميع آلاته، ورجع إلى تونس فلم يصل إليها إلاّ مع خمسين فارسا لا غير.
وجَمَعَ الجزائريون جُنود مُراد باي ووضعوا فيهم السيف ولم يعتقوا[1] سوى الأتراك من عسكر مُراد باي جَمَعُوهم وكلفوهم بجرِ المدافع التي أتى بها مُراد باي؛ وكان عَدَدُها خمسة وعشرين مدفعا، فجرُوها على أكتافهم حتى بلغوا قسنطينة، ثمّ سرّحوهم فمنهم من رجع إلى تونس، ومنهم من ذهب مع عسكر الجزائر ودخل في جملته.

هجوم الشّريف بن الأحْرش[2] على قسنطينة

وغزاها الشّريف بن الأحْرش سنة 1219 هـ/1804 وهو رجلٌ مغربيّ يزعم أنّه من شُرفاء مُلُوك فاس، دخل وسط القبائل ووعدهم بأخذ قسنطينة وأظهر لهم أُمورا يزعُمُ أنّ بارودهم يتكلّمُ وبارود أهل قسنطينة يرجِع ماءً في مَكَاحلِهم[3]، وغرهم بأمثال هذا الكلامِ، واستمالهم ووعدهم بأموال قسنطينة وحريمها. فاجتمع عليه جُنْدٌ عظيم من فِرَقِ

1- ولم يطلقوا سراح ولم يعتقوا في اللغة حرروا .

2- داعية من أصل مغربي اتّخذ جبال القلّ معقلا له ولأتباعه . أنظر تفاصيل أكثر حول هذه الشخصية في كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر تأليف الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري وشرح وتعليق الدكتور ممدوح حقّي. دار اليقظة العربية بيروتالطبعة الثانية، 1964، الجزء الأول صفحة 117-118.

3- أي بنادقهم والعامة عندنا تسمي البنادق المكاحل .

القَبَائل السَّاكِنِين ما بين جِيجل[1] وسُكَيْكِدة[2] أكثر من مائة ألف، وصار بُجُموعه قاصِدا قسنطينة، وهرب أهل البادية من طريقه وتحصَّنوا بالجِبال والشِّعَب.

وكان حاكم قسنطينة إذّاك عثمان باي بن قَارة محمد باي[3] وهران بمحلّته في نواحي جَبَل بابور[4]، فزحف الشَّريف بالقبائل إلى قسنطينة، وخرج إليه قائد الدَّار[5] الحَاج أحمد بن الأبيض[6] في جماعة من الخيل قَلِيلة، وانضمَّ إليه من نواحي قسنطينة أُنَاس ووقع القتال، وطلعت القبائل بجدِّها وجهْدِها حتّى وصلوا رحْبَةَ البَلَدِ[7].

1- مدينة ساحلية هي التي احتضنت الإخوة بربروس في مطلع القرن السدس عشر الميلادي

2- مدينة تقع على الساحل الشرقي الجزائري كانت بها موانئ بايات قسنطينة .

3- هو عصمان باي 1803 – 1804 وهو كرغلي من أولاد قارة محمد هو ابن محمد بن عثمان الكبير باي وهران خلف أباه على بايلك وهران خمس سنوات وعين على بايلك الشرق قسنطينة ولكن الملياني خليفة وابن كوجوك علي باش كاتب وحاج أحمد الأبيض قائد الدار وبن شاندرلي إبراهيم آغا الدايرة وأبناء بن زكري باش سيّار وباش شاوش. تاريخ العنتري، ص: 69 .

4- تقع في الغرب الجزائري .

5- هي وظيفة في النظام التركي بقسنطينة وبالتحديد شيخ المدينة المتصرف في شؤونها والقائم بمؤونة العسكر.

6- كان يتولى منصب قايد الدار .

7- تقع في ضواحي المدينة.

ووصلوا باب الوادي[1]، وقَاتَلَهم اهل البَلَدِ من فوْق الأسْوار، ورموهم بالمدْفَعِ، فانهزم الشّرِيف وأصابه جرحٌ في يَدِهِ وفَرّ هاربا، ومات من القبائل خَلْقٌ كَثِيرٌ وانْتنت الطّرقُ برائحة أمْوَات القَبَائِلِ، ولم ينلْ منها وَطَراً وقصّتُه مَعْلُومة.

ولمّا سمِع عُثمان باي بذلك عجّلَ بالدّخول إلى البَلَد فلم يلْحق الواقعةِ، وتهيّأ لغزو القَبَائِلِ، وجَمَعَ عسْكرا عظيما وخيْلا كثيراً من الدّائرة والأعْراشِ، وخرج بمحلّة لا قِبَلَ لأحَدٍ بها يُريد الشّريف بِوَادِ ازْهُور[2] بين جيجل والقل، وكلّما وصل إلى فِرْقة من القبائل طلبوا الخدمة[3] والأمَانَ فيُؤمّنهم، ويَقبل منهم الخِدمة إلى أنْ وصل واد ازْهُور جاءَهُ القَبَائِل وقالوا ابعث مَعَنا الخيل نمسك الشّريف ونأتِيك به، وذَلك مكر مِنهم وخديعة. فبعث معهم آغَةَ الدائرة في خمسمائة فارس، فلمّا وصلوا إلى وَادٍ هُناك صَعْب أحَاطَ بهم القبائل وعزَموا على قتْلِهم وألجئوهُم إلى سفحِ الجبل، فلمّا رأوا كثْرة القَبَائل ودورانُهم بهم من كلّ جِهة نزلوا على

1- أحد أبواب مدينة قسنطينة الخمسة وهي : باب الوادي وباب ميلة وباب الحامة وباب الجابية وباب القنطرة .

2- وادي زهور، وهو واد محصن بكثرة أشجاره وتشعب طرقاته بين جيجل والقل، العنتري تاريخ بايات قسنطينة، ص: 70 ، 71 .

3- أنظر تفاصيل أكثر تاريخ بايات قسنطينة ، ص : 71 .

خُيُولهم وحفروا بِسُيُوفهم حفيرا تَتَرّسُوا به، وبقوا هُناك ثلاثة أيّام أو أربعة أيّام هم وخيلُهم جُوعا وعطشا.

فلمّا سمِعَ عُثمان باي بهم أمر المحلّة بالرّحِيل، وركب هُوَ وجنوده وقصد نحوهم، فجاء القبائل من خَلفه وقطعوا الأشجار في الطّريق وعرضوا الخشب وطلقوا[1] الماء على الأرض حتىّ صارت وحلًا. ولمـــا قرُبَ عُثمان باي من القوم الذين بالمـتَارِزِ، وسمعوا به رَكِبُوا خُيُولهم وخرجوا ولم يقْصدوا الباي، بل خرجوا هَارِبِين. فوقعت الهَزِيمة في المحَلّة وصاحت القَبَائلِ من كلِّ جهةٍ وحصلت[2] النّاس في الطِّين ولم يعرِفوا طريقا. فلم ينْجُ من تلك المحلّة إلاّ القليل، وأخَذَ القبائل جميع الأموال والخيول والسِّلاح، وقتلوا عُثمان باي وقبرُهُ[3] هناك اليوم معروف.

هجوم حمودة باشا على قسنطينة

وغزا قسنطينة حمُودة باشَا تُونس سنة 1221هـ وخبرُ ذلك يَطُولُ، ومُلَخّصُهُ أنّ تُونس وعمالتها كانوا تحت قهر

1- أي فتحوا مجاري المياه ودون شك مجاري الأنهار والسواقي والفصيح أن يقول أطلقوا.

2- وقعوا في الطين جرّاء السيول ويقال في فصيح الكلام: وحلوا بكسر الحاء أي وقعوا في الوحل وهو الطين المبتَلّ.

3- حاصره ابن الأحرش ونصب له كمينا محكما أبدع في وصفه العنتري في كتابه بايات قسنطينة، ص: 71 .

وذلّة لسُلْطان الجزائر وعامله على قسنطينة؛ لأنّ السبب في ولَاية سُلطانها وتَمكّنه بِمَمْلكتِها كان بِواسطة سُلطان الجزائر، فكان يُعامل أهل الجزائر لذلك ويُراعي حقّهم، وغالب الأمور تجري على يَدِ بَاي قسنطينة. فكان يبعث أُناسا من أهل مَخْزَنِه إلى تُونس لقضاء حَوَائِجه وله وَكِيل هناك، فكانوا يَغْلَظُون على رَعيّة تُونس ويظلمُونهم في طَرِيقهم كأهلِ الكاف[1] وغيرهم من القُرى، ويبلغ ذلك إلى حمّودة باشا فيتحمّل لهم ذلك. وكان صَاحب عقْلٍ وسياسة مُلْك، وكان أهل مخْزنِ قسنطينة أهل غلْظَة وفظَاظَة لكَوْن غالبهم من أهل البَادية، فلا يُراعون حقّ السّلطنة بل تحملهم غلْظتهم على العُنْفِ ومُجَاوَزة الحدِّ حتىّ أن واحدا من أولاد بن زكري[2] ذهب إلى تونس في حاجةٍ إلى سيّده الحاج مُصْطفى انڨليز باي[3] قسنطينة، فلمّا وصل إلى تونس أكْرمه حمّودة باشا وأنزله منزِلا قريبا منه، وامر بتعظيمه فأُوتيَ يوما بِطَعام كثيرٍ في أواني فضّةٍ وبلّورٍ وغير ذلك من أواني المـلُوك، ووضعت بين أيْديهم فأكلوا الطّعام ورمَوْا بالأوَاني من العُلُوِّ إلى أسفلِ فانْكَسرت وضاعت، ثمّ

1- اسم مدينة بالقطر التونسي تقع قرب الحدود الجزائرية الشرقية.

2- أولاد بن زكري كانوا يشغلون مناصب كباش سيّار وباش شاوش .

3- انڨليز باي هو الحاج مصطفى باي وقد تولى الحكم سنة 1212هـ، وكان فاسد الأخلاق ظالما وبلغ ذلك باشا الجزائر فعزله سنة 1218هـ/ 1803-1804م، العنتري تاريخ البايات، ص:68.

شَرِبَ الخمرْ وامر خادمه ان يأتيه بالمكْحَلة[1] فجعل يُعمّر بالرَصاص ويَضْرب إلى صَرَاية[2] حمّودة باشا، فاستْغاظ الباشا غيْظا، وأراد أن يَقتُلَه ثمّ رجع إليه عَقله وتفكّر فيما يؤول إليه الأمرْ من الفساد فذهب غيظه. وكان يتحمّل من ذلك شيئا عظيما إلى أن عزل الحاج مُصطفى باي وعفا عنه باشا الجزائر ولم يقتله ونفاه هو وولده علي إلى تونس، فقَبِلَه حمّودة باشا وأجرى عليه إكراما.

وتولّى حاكما على قسنطينة عُثمان باي المتقدم ذِكره، ووقعت بينه وبين حمّودة باشا مُهاداة ومُضافات[3] إلى أن مات بالقبائل كما تقدم.

وتولى بعده عبد الله باي[4] وكان رجلا شُجاعا شهما فخرج من الجزائر فلمّا وصل إلى قسنطينة وجد رعِيّتها قائمة على ساق ونافقت كلّها، فجعل يغزو ويُقاتل من خرج عن الطّاعة، وذهب إلى قِتال الشّريف المتقدّم، وقد تحوّل من القبائل إلى عامر نواحي اصديف[5] فقاتلهم عبد الله باي،

1- البندقية .

2- صراية: هي السراية فارسية الأصل ومعناها القصر.

3- لعلها مصافاة كما وضحها الأستاذ رابح بونار .. أي هدايا وضيافات.

4- حكم ما بين 1804 إلى 1806 أنظر العنتري، ص: 72.

5- أصديف: هي مدينة سطيف، وقد استعمل ابن المبارك النطق العامي في كتابته ولعلّ الرسم الأول من الناسخ.

وأخذ أموالهم وقطع رؤوسا كثيرة منهم، وهرب الشّريف فلم يُر أين ذهب[1]. ولم يزل عبد الله باي يشدّ الغارة على المنافقين حتىّ أذعنت له الرّعية بالطّاعة ورجعت كما كانت. وغزا رعيّة تُونس فقاتل وسبى وساق الأموال وتوغّل بأخذ رعِيّة تُونس حتىّ قرُبَ من الكاف. فاستشاط حمّودة باشا غيظا وأغزاه الحاج مُصطفى انڨليز باي وصرّح بعداوة الجزائر، وأمر الوكيل الذي في تُونس والتجار القسنطنيين[2] ومن كان هناك من أهل الجزائر أن يرجِعوا إلى بلادهم آمنين. فخلصوا أموالهم ورجعوا إلى بلدِهم، ووقعت العداوة بين الجزائر وتونس، ثمّ إنّ عبد الله باي غزا وقُتِل.

1- جاء في تُحفة الزّائر أنّها "انهزمت جيوش ابن الأحرش وتفرّقت، وفرّ بنفسه ولحِق بابن الشريف، في الجهة الغربية، وبقي في "معيشة" إلى أن دُسَّ له من قتله من أصحابه" ص: 118.

2- يقول الحسن الوزّان عن تجار قسنطينة: " يجتمع أهل قسنطينة مرّة في السنة في قافلة تذهب إلى نوميديا يحملون إليها أقمشة الصوف المنسوجة في بلادهم ، وشيئا قذِرا يُسمّى "الحشيش" ويصحبون معهم بعض الأتراك من حاملي البنادق توقّعا للأعراب الذين كثيرا ما يهاجمونهم ويستأجرون بأعلى الأثمان . لا يؤدي تجار قسنطينة واجبات الدخول إلى تونس بل يؤدون عند الخروج منها ما قدره اثنان ونصف بالمائة إلاّ أنهم يتضررون من هذا السفر أكثر ممّا يستفيدون إذ تؤدي بهم مُتعة الفجور إلى تبذير معظم ما حصلوا عليه وإنفاقه على النساء العاهرات " رحلة الوزّان، ص:59 ، 60 .

وتولىّ مكانه حُسين باي بن صالح باي[1]، وكان ولدًا صغيرَ السنّ حضَرِيًا لا يقدِر على الرّكوب والغزو ولا له معرفة بالحُرُوب وسياسة الملك، فاغتنمها حمّودة باشا وأمر بعساكره وجُنوده ورعيّته وسار وَزِيرُه سُليمان كاهيا[2] بالمحلّة، وساق رعِيّته بِنِسَائِهَا وذُرِيَاتها وأموالها. وجمع من العساكر والخيل ما يزِيدُ على مائة ألف سِوَى العُرْبان.

وكاتب مشايخ رعيَة قسنطينة مِثْل الحنَاشِي، وشيخ أوْراس، وشيخ العرب وأهل مجانَة، وبذل الأموال واستمال النّاس إليه ووعدهم بالخير العظيم على أن يكونوا معه ويخذلوا باي قسنطينة. وخرج وزيره بتونس بآلات عظيمة من مدَافع وكُور وضوبلي[3]، وحمل من البُونْبَة[4] الكبيرة على خمسمائة جمل كلّ جملٍ يحمل اثنين سِوَى الكُور والكنبرة[5] وغير ذلك ممّا لم يأت به أحد من قبله. ولمّا وصلت جُنوده إلى قُرب قسنطينة لَقِيه حسن باي بجنوده، فناوشوا بعض قتال، وانخذلوا[6] في الشّعاب والأودية خيانةً

1- تولى حسين باي حكم قسنطينة سنة 1219هـ وقتل مخنوقا سنة 1223 هـ/1808 – 1809.

2- كاهية: كلمة تركية معناها النائب.

3- ضوبلي: كلمة إسبانية ومعناها الرصاص في اللغة الدّارجة.

4- المتفجرات أو المدفعية.

5- الكنبرة: كلمة تركية وأصلها القنبرة بفتح القاف وتسكين النون وضم الباء وهي الكرة.

6- خارت عزيمتهم .

ومكرا، ومن الغدِ وصلت المحلّة إلى الموضع المُسمّى بسطحة منصورة، وخرج أهل البلد للقتال فمات من مات ورجع من بَقيَ إلى البلَدِ وغلّقوا[1] الأبواب وهرب حُسين باي إلى قصر الطيّر[2] من بَلَدِ رِيغة، فنصب سُليمان كاهية مدافعه على قسنطينة وحاصرها شهرا كاملا ويوما كل يوم يسيب[3] عليها أكثر من مائة بُونبة سوَى الكُور والرَّصاص وفي النَّهار تركب خُيوله ويطوفون بالبلَدْ هل يجدون غرّة فيرمونهم أهل البلد بالرَّصاص والكُورة فيرجعون على أعقابهم، وبعث الله المطر في تلك المــدّة فلم يحس أهل البلد عطشا.

ثمّ بعث حمّودة باشا محلّة أُخرى عليها الحاج مُصطفى انڤليز باي، فنزل خلف الكُدْية[4] المقابلة للبلد، وضيّقوا على أهل البلاد بالرّمي والمحرقات، وكان ذلك لا يضرّ أهل البلاد شيئا بل كانوا إذا أمسكوا عن الرّمْي عليهم يُنادونهم

1- حتى يؤمنوا أنفسهم وغلّقوا من كلام المحدثين والفصيح أغلقوا قال الشاعر العربي:

ولا أقول لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدّار مغلُوق

يعني يُقال: غَلت القِدر لا غليت بكسر اللاّم وأغلق الباب فهو مغلق بضم الميم وفتح اللاّم.

2- يقع قرب سطيف .

3- يسيب: فعل يعتقد أنه من العامية ومعناه يصب ويرمي أو يطلق عليها المدفعية ويسيّب معناها يرسل ويبعث وفعله الماضي: سيّب بتشديد الياء.

4- الهضبة .

من ناحية باب القنطرة[1] والشطّ[2] مالكم غفلتُمُ اللّيلة ارموا وفرّحُونا، فيشتدّ غيظ أهْل تونس ويُنادون أهل قسنطينة بالشّتم ويقُولون في كلامهم ادعُوا بالرّحْمة لمن بَنَاها لكم على صوانَةٍ، أي على حجر الجبل.

ثم اتّفق أمر سُليمان كاهية[3] على أنْ يدهموا بالإبِلِ إلى السّور ويجعلون السّلاَلمَ ويدخلون عليها عَنْوةً، فساقوا الإبِلَ أمام العسكر ودهموا إلى أن وصلوا جامع سيدي بركات العروسي[4] وموضعه حيث انتهت اليوم البلاصة الخارجَة عَنِ الباب، وتكلّمت طوارق[5] المــكَاحِل والمدفع من سُور البلد فأصابت نُحُورَ الإبِلِ فتأخّرت ورجع بعضُها على بعضٍ حتّى وَطئَتْ عسكرهم. فولّوا هَارِبين ولم يتركوا حِيلَةً إلاّ وفعلُوها فلم يقْدِروا عليها، ومع هذا فليس بها باي ولا خَلِيفة ولا عساكر سِوَى أهل البَلَدِ وقليل من الأتراك.

1- أحد أبواب قسنطينة الشرقية.

2- أحد دروب مدينة قسنطينة العتيقة.

3- تولّى حمودة باشا الملك بتونس سنة 1196 هجري وكان حازما حسن التدبير، وكان منذ تولّى الملك يستعِدُّ للهجوم على الجزائر وأعانه على ذلك وزير حربه سليمان كاهية وزحفت قواته إلى قسنطينة وحاصرها حصارا شديدا حتّى كادت تفتح سنة 221 هجري، ثم انهزم عنها شرّ هزيمة كما يقول ابن المبارك والعنتري.

4- لا أثر لهذا الجامع اليوم بقسنطينة والبلاصة تعني الساحة

5- أصوات بارود البنادق .

وخرجت محلّة عظيمة من الجزائر معها أحمد آغا، فلمّا وصل إلى ناحية مجّانة[1] لقيه حسن باي، واسرع الجميعُ إلى أن وصلوا إلى قسنطينة، وتلقتهم خيل التّونسيين واقتتلوا قتالا شديدا، وبنى أحمد آغة[2] محلّته ببُوحمرون[3] مقابِلا لمحلّة التّونسيين واظهر في ذلك اليوم شجاعة عظيمةً بحيث أنّه ليس معه في المحلّة إلاّ القليل من النّاس فما هو إلاّ أن نصب وِطَاقةُ[4] ورمى بالمدفع رزقه الله بالنّصرِ.

وجاء عسْكر من الجزائر في البحر نزل على عنّابة[5] وأتى على طريق السّمنْدُو[6] على راس الحامّة[7]، وصعد على عقبة السمارة[8]، وهي الطّريق التي أسفل البلْد إلى ناحيّة البساتين. فلّما وصلوا إلى مَجاز الغنَمُ[9] الذي عليه اليوم

1- تقع في شرق البلاد .

2- آغة: كلمة تركية الأصل ومعناها: قائد الخيل.

3- اسم أحد المداشر .

4- وِطاقه لعلّه عتاده الحربي.

5- مدينة بونة قديما تقع شرق قسنطينة

6- قرية قريبة من قسنطينة تسمى اليوم زيغود يوسف .

7- الحامة هي أرض بساتين ومياه حارة تقع شمال شرق قسنطينة .

8- هي عين السمارة التي تقع في مدخل قسنطينة الغربي . .

9- هو الممر الرابط بين قسنطينة وضاحيتها الجنوبية وعليه جسر يسمى جسر مجاز الغنم إلى يومنا هذا 2011.

قَنطرة الوادي نزل عسكر تُونس من الرِمال[1] واجتمعوا فاقتتلوا أوّلا بالمـكَاحِلِ ثمّ سلّوا السّيوف، وتقدّم بعضهم لبعض فلا ترى إلاّ يدا طائرةً، ورأسا مَطْروحا، واجتلدوا ساعة وانهزم عسكر تونس، وأظلم اللّيل وبات كلُّ واحد في محلّتِه مُهتما بأمر عدوِه. فلمّا كان نِصف اللّيل فَرّ سُليمان كاهية، والحاج مصطفى وولده علي، وأعيان التّوَانسة ولم يُخبروا عسكرهم بالهُروب ولا أهل رعيّتِهم. فلمّا أصبح الصّباح إلاّ والنّاس منهزمون، وفُتحت أبوابُ البَلَدِ وخرج أهلُها وغنمت النّاس غنيمة كثيرة وسَبيت عَرَب تُونس وذَرارِيهم، ومُسك جلّ عسكرهم. فَمَنّ عليه الآغا وبعثه إلى الجزائر، ومن هُناك جعلوه في مَراكب وبعثوه إلى تونس ولم يدخل أحمد هذه المدينة، وكلّ من أرادها بِسوء رجع عليه إلى أن كتب الله دُخول الجُند الفرانصوي إليها سنة 1253 هـ/1837م والأمر لله الواحد القهّار.

سبب بِناء قلعة المنصُورة

وأمّا سبب بناء القلعة التي كانت بسَطْحَة المنصورة وهدمها مُراد باي فإنّها من بناء التّرْك؛ وذلك أنّ قسنطينة كانت تحت طاعة مُلوك بَنِي حفص، وكان كُرسيّهم بتونس، ولمـا ضعُفت دولتهم وشاركهم النّصَارى في التصرّف في

1- يقصد وادي الرمال الذي يشق مدينة قسنطينة .

المملكة مُلك بَنِي مَرِين بالمغرب[1] صارت قسنطينة تحت طاعتهم، فلما تمكّن التّرك من الجزائر، وقويت شوكتهم، وضعفت دولة بني مرين بالمغرب .

ودولة بَنِي حمّاد[2] بِبِجَاية عثت[3] العَرَبُ بالفساد في الأرض واستولوا على وطن قسنطينة، خرج عسكَر التُّرك من تونس ومن بَلَدِ العِنَابِ[4] ورجعوا إلى قسنطينة ووقعت بينهم وبين العرب وقائع عظيمة أعظمُها واقعة وادي القطن[5] بين ميلة وقسنطينة[6] اتّخذ كلٌّ فريق صاحبه، ثم وقع بينهم صُلْح بأن يكون التّرك بقسنطينة ويكون تصريف الوطن بينهم أثلاثا ثُلُثَهُ لابن علي شيخ العرب، وثُلُثه لشيخ نجْع الحَنَانْشَة وثُلُثه لحَاكم التّرك، وتعاهدوا على هذا

1- بنو مروان ورد في النّص الأصلي وهو سهو وتصحيف والصحيح بنو مرين .

2- دولة بني حماد التي تنسب إلى حماد بن بلكين تأسست بالقلعة سنة 405هـ ثم تحول كرسيها من القلعة إلى بجاية وسقطت على يد الموحدين 547هـ- وذكر بني حماد وحدهم هنا وإغفال دور الموحدين الذي يمتد في الجزائر وتونس من سنة 547هـ إلى سنة 626هـ ودور الحفصيين الذي يمتد من هذه السنة 626هـ إلى سنة 982هـ هو تقصير كبير من مؤرخنا أحمد المبارك وإهمال لمراحل تاريخية كبيرة قبل بداية العصر التركي.

3- عاثت.

4- يقصد بونة التي هي عنابة حاليا.

5- أعتقد أنّ هذا الوادي لا يحمل اليوم هذه التسمية .

6- يكتب ابن المبارك قسمطينة بالميم كما تنطقها العامة .

واصطلحوا[1] عليه، ومن ذلك الوقت بقيت العادة إلى وقتنا انّ الباي إذا اتته خِلعة الوِلاية من الجزائر يَلْبَسُها هو الأوّل ثمّ يبعث بها إلى شيخ العَرَبِ وبعده إلى شَيْخِ الحَنَانْشَة، ويُعرف وَظيف العرب ووَظيف الحنانشة بوظيف القفطان لأنّ وِلايتها كولاية الباي.

ولمـــا وقع الصّلح اختلف أهل قسنطينة: فمنهم من أذعن للتُّرك ورضيَ بدخولهم، ومنهم من امتنع ولم يرض بذلك، وكان رأس الممتنعين الشيخ الكبير والنّسب الشّهير سيدي عبد المؤمن[2]، ورأس الرّاضين بدخول الأتراك العالم الجليل سِيدي عبد الكريم الفـگون[3].

ونزل الأتراك بسَطحةِ المنصُورة وشرعوا في بناء قَصَبةٍ هُناك لعسكرهم وأظهروا العدْل والسِّياسة.

1- يلاحظ هنا أن محاولات الأتراك لفتح قسنطينة وتوزيع النّفوذ بين الحاكم التركي وشيخ العرب وشيخ الحنانشة وما نتج عن ذلك قد انفردَ بذكره الحاج "أحمد المبارك دون معاصره المؤرّخ العنتري.

2- ذكر العنتري تفصيل ما وقع من الشيخ سيدي عبد المومن الذي عارض دخول الأتراك والشيخ عبد الكريم الفقون الذي أيّد دخولهم كما أيّد فيما بعد أسرته دخول الفرنسيين لذا أعزّه الأتراك وأعزوا أولاده طيلة حكمهم ، كما أعزّ الفرنسيون آلا الفقون فيما بعد.

3- هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفقون أنظر الأعلام للزركلي ج4 ص: 179 ورحلة العياشي ج 2 ص: 306.

وخالف سِيدي عبد المـؤمن، وأهل حومة باب الجابية[1] على التّرك، وقابلوهم ثلاث سنين إلى أن تحيّلوا[2] على الشيخ سيدي عبد المؤمن، وكانت له مشْيخة البَلَدِ فصالحوه ولم يزالوا يَنْصِبُون له حَبَائِل المَـكْرِ والخِداع حتىّ تمكّنوا به، دعوه لِضيافة بقَصْبَة المنصورة فأجابهم، وخرج إليهم آمنا فقتلوه وسلَخُوا جِلْدَه وملأوه قُطْنا، وبعثوا به إلى الجزائر ودُفِنت جُثّته بمسجده المعروف به اليوم[3].

وكان سِيدِي عبد المؤمن هو شيخ رَكْب الحِجاز[4] في السّنة الرّابعة، يتعيّن للحجِ ويمضي معه المُسلمون هو أمير رَكْب الحِجاز. فلمّا قتله التّرك ردّوا المشْيَخَة إلى ابن الفـڤون. فمن ثمّ صار يَمشي بالركب كما كان الشّيخ سِيدي عبد المـؤمن، وجعلوا له حُرمة عظيمة فلا يتعدّى أحد على حُرمته، ولا يُقَاسُون بما يُقَاسُ به غيره، إلى غير ذلك من المَبرّات التي جعلت له ولذُرّيته بعده إلى زماننا هذا.

1- تقع هذه الحومة و لا يقال الحارة لأن هذه الأخيرة تخص اليهود في باب الجابية وهو البوابة الجنوبية لمدينة قسنطينة و لا يزال يحتفظ بهذا الاسم إلى يومنا هذا .

2- أي احتالوا عليه ودبروا له مكيدة ، وربما بمشاركة منافسيه من آلا الفقون حتى ينالوا مبتغاهم من الزعامة ومشيخة البلد .

3- يقع اليوم مسجد سيدي عبد المومن في حومة العرب السويقة حاليا والتي مخرجها باب الجابية وبموته انتهت رياسة بني عبد المومن لقسنطينة والتي كانت لهم طوال العهد الحفصي .

4- ولاية الرّكب الحِجازي كانت عادة قديمة ولعلّها تعود إلى العصر الموحّدي.

وهذه القلعة التي بناها التّرك بسَطْحَة المنصورة هي التي هدمها مُراد بَاي تونس حين غَزا قسنطينة وقد مرّ ذِكره.

- بايات قسنطينة

وكانت ولاية قسنطينة لأولاد فرحات باي[1]، منهم علي خوجة[2] المتقدّم الذِكر، وغيره يتوارثونها بينهم، ولما ظهر عجزُهم وضعفهم عن مقاومة العُرْبان وأهل الوطن جاء حاكم تُركي من عسكر الجزائر يُقالُ له حُسين كِلْياني[3] ويعرف بالشّايب وبُوكمِيّة.

- ولاية حسين كلياني

وكان بطلا شُجاعا دَبّرَ أمر الرعية أحسن تدبير، وأطاعه العرب وغيرهم، وبنى الجامع الأعظم بسوق الغزل[4] بحُومة رُؤوس الدّوامِس من قسنطينة[5]، وهذا الجامع اليوم

1- أول من تولّى منهم هو فرحات باي سنة 1647 إلى 1653 وكان ذا عقل ودار كبيرة كما يقول العنتري في تاريخ بايات قسنطينة، ص: 47 .

2- تولى حكم قسنطينة 1692 إلى 1700، بايات قسنطينة، ص:50

3- تولى الحكم سنة 1105هـ - 1713-1714م.

4- وهو المسمى حاليا جامع الباي.

5- لا وجود لاسم هذه الحومة اليوم.

متعبد الفَرَانصِيص[1]، وفي أيامه خرجت محلّةُ من الجزائر لنُصْرة علي باشا تونس، وكان قد هرب من عمِّه حُسين بن علي صاحب ولاية تونس، وخرج حُسين كلْياني بمحلّته من قسنطينة فساروا قاصدين تُونس واجتمعت عليهم العرب من رعيته ورعية تُونس وجدّوا السير.

وخرج حسين بن علي من تونس بجنوده وعساكره حتّى نزل بموضع يُقال له سمنجة بينه وبين تونس أربعة عشر فرسخا، ونزلت محلّة الجزائر وحسين كلياني في مُقابلته، فمكثوا ستّة عشر يوما لم يكن بينهم قتال إلاّ النّزر القليل يقع بين جَماعة من الخَـيّالة إذا تلاقوا وينحجزون، وفي كلِّ هذه الأيّام عرب إفريقية تنخذِل وتهرب إلى الجزائريين. وفي اليوم السّابع عشر خرج الجزائريون على تَعبئة من محلّتهم آخر اللّيل وقصدوا المحال التّونسية ورَكِب حُسين كلْياني في خيله وعساكره، وكان له معرفة بالحرب ونجدة وسِيَاسة، ولم يمضِ مع محلّة الجزائر بل مشى وحده بجنوده وقصد البرِيّة حتىّ خرج خلف محلّة تُونس.

1- بعد غزو الفرنسيين لقسنطينة عام 1837 حولوا هذا المسجد إلى مهام عسكرية . وكلمة الفرنصيص تعني الفرنسيين حسب نطق العامة.

ولمـــا التقى الجمعان من محلّتي الجزائر ومحلّة تونس اشتعلت نار الحرب بينهم واستدارت رحى الطحن[1] والضّرب وكلبت[2] محلّة تونس على محلّة الجزائر، ووقع الاختلال في الجزائريين وكَثُر فيهم القتل فلم يشعروا إلاّ وحُسين كِلياني هجم على محلّة تُونس من خلفهم بحدِه وجِدِه، فملك المحلّة بما فيها من الأخبية والسِّلاح والمدافع وجميع آلاتها وحيواناتها ورجالها المتخلِّفين على القتال. وأمر بإسقاط الأخبِية المبنية. فالتفت المـــُقَاتلة من أهل تونس فلم يَرُعْهم إلاّ ومحلّتهم في يد العدوِ فانهزموا، وخرج حُسين بن علي سُلطان تونس، وهَرَب من هَرَبَ من جُنوده وأُسِر من أُسِر. ودخل علي باشا إلى تُونس ونزلت محلّة الجزائر وحُسين كِلياني بالحَرايرِية وهو مَوضِعْ قُرب تونس حتىَ استراحوا واخذوا من علي باشا ما شرطوه عليه ورجعوا إلى بِلَدِهم.

1- رحى الطحن يشبه العرب الحرب بالرحى لأنها تطحن وترحي وتفني يقول زهير وتطحنكم طحن الرحى بثفالها ..

2- كلبت: معناه في الاستعمال العامي: هاجت وتحمست واشتدت في القِتال وهو ما يريده الحاج أحمد المبارك هنا.

- ولاية حَسن باي بُوحنك

ولمــا مات حُسين كلْياني تولّى مكانه حسن باي بُوحنك[1] ويعرف بعجّشي[2] حسن، وكان رجلا ذا هَيْبة، صعبا لا يقول بوليّ و لا يَرى جاها لأحد لشدّة نفسه وشهامة طبعه إلى أن اجتمع بالوليّ الصّالح الشّيخ الشّيحي في حاجة عرضت له عنده، فلمّا تكلّم معه أراد أن يغلظ على الشّيخ، ثمّ نظر فإذا أهوالٌ عظيمة أحاطت به، ورأى نفسه جالسا على هَواء عظيم، والنّار تشتعِل تحته، وشاهد ما لا طاقة له على رؤيته، فاستغاث بالشّيخ وحسُنت نيّته فيه واعتقد كرامة الأولياء من حِينئذ وأعطى للشّيخ دارا بقُرب الأربعين شريفا[3] لازالت إلى اليوم تُعرف بدار الشليحي، وأعطاه الرِّضا، وجعل له زَاوية بِبَلد اولاد عبد النّور[4]، وأسقط المطالب المَـخزنيّة عن زَاويتِه، ولم تزل إلى اليوم تُعرف بزاوية الشليحي.

1- تولى الحكم سنة 1736 إلى 1754 بايات قسنطينة، ص: 56

2- عجشي والظاهر بفتح العين وتسكين الشين ومعناه طبّاخ بالتركية وكان وظيفة من أهمّ وظائف الدولة التركية، فكان هو الناظر على مطابخ دار الدّاي.

3- أحد أحياء قسنطينة العتيقة لا يزال يحتفظ بهذا الاسم يقع مقابل القصبة

4- من مناطق الميلية بالشمال القسنطيني .

وحسين باي هذا هو الذي بنى الجامع الأخضر [1] وجعل عليه أوقافا، وحين مات دُفِن به.

وفي أيّامه طلب منه يُونس ولد علي باشا تونس، وهو مُحاصِر للقيروان [2] أن يمدّه بمحلّته ويعينه على أخذ القيروان ويعطيه مائة ألف رِيال فأجابه عجشي حسن أنّه لا يخرج بمحلّته حتىَ يقبض المال، فاتّفق رأيهما على أنه يخرج فإذا وصل تِيفاش [3] اخذ خمسة وعشرين ألفا أُخرى فإذا وصل إلى القيروان أخذ خمسين ألفا فخرج عجشي حسن باي بمحلّته إلى ان وصل تِيفاش وقبض خمسة وعشرين ألفا، ثمّ بدا له في الرّجوع فرجع إلى قسنطينة.

وفي أيّامه خرجت محلّة من الجزائر لِنُصرة محمد باي ولد حسين بن علي [4] على وَلَد عمّه علي باشا، وكتب صاحب الجزائر إلى عجشي حسن أن يُجهِز محلّته ويتهيّأ للخروج

1- من هذا الجامع الذي يقع في ما يعرف برحبة الصوف انطلقت حركة الاصلاح للشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1931 .

2- سبق التعريف بالقيروان .

3- مدينة تيفاش من أعمال قسنطينة وقد نبغ منها بعض أعلام الفكر في القدم مثل أحمد بن يوسف التيفاشي المتوفي عام 651 هجرية صاحب كتاب "متعة الأسماع في علم السماع" وكتاب "رجوع الشيخ إلى صباه في القوّة والباه" وكتاب "أزهار الأفكار في جواهر الأعجار" وغيرها. وهي الآن تابعة لولاية سوق أهراس بالشرق الجزائري.

4- أنظر تفاصيل ذلك في كتاب بايات قسنطينة ، ص: 56 .

مع أحمد آغا كبير محلّة الجزائر حين يَرِدُ عليه؛ وكان حسن باي كارها لذلك لِمَا بينه وبين علي باشا تونس من المحبّة والصداقة لكن لم يسعه إلاّ امتثال أمر إبراهيم باشا بالجزائر، لأنّه عامِلَه وتحت طاعته، فجهّز محلّته، ولمـا وصله أحمد آغا سارا جميعا، ومعهُما محمد باي وعلي باي وَلَدَا حُسين بن علي يطلبان كرسيّ أبيهما بتونس، واجتمع عليهم من عرب قسنطينة، وعرب تونس جيش لا يُحصى ولا يُعدّ، ورحلوا إلى أن بلغوا الكاف فوجدوا علي باشا قد حصّنه وشحنه بالعساكر والمـقَاتِلة وآلة الحرب.

وفي هذه المدّةِ لم تنقطع الرّسُل بين حَسن باشا، وبين حسن باي سِرًا يطلب منه ردّ هذه الجنود عنه، ويُواعدهُ حسن باي بذلك، ولمـا وصلت المحال إلى الكاف وحاصروه وضيّقوا عليه، أمر أحمد آغا بحفر لُغمٍ تحت البَلَدِ ليُهدِّم به سورها، فشرع في حفره وتفطّن لهم أهلُ الكاف؛ وكان آغا القَصَبَة بها ممّن له معرفة بِصنعة الألغام، فطاف بالبلد وحرز[1] المـواضِع حتىّ غلب على ظنّه أنّ لُغم الجزائريين يكون من موضع تحقّقه، فأمر بالحفر فيه من الأعْلى ولا زال يحفر، ثمّ أمر بقطعة من جلْد فوضعها على الأرض، ووضع عليها قمحا قليلا، وجعل ينظر إليه فشاهد القمح يتحرّك لضرب الفاس من أسفله، فأمر بالحفير هناك حتىّ ظهر له

1- حرز: أي راقب

عامل اللّغم من الأسفل فرموه برصاصة فقتلوه وبطُلت حِيلة اللّغم؛ ثمّ إنّ حسن باي كتب إلى إبراهيم باشا بالجزائر وأخبره سِراً أنّ أحمد آغا تكلّم مع جميع العساكر حين يرجعون إلى الجزائر يقومون عليك ويقتلونك ويجعلون أحمد آغا في موضعك، فأسَرّها إبراهيم باشا في نفسه، وكتب إلى أحمد آغا يأمره بالرّجوع، وكتب إلى حسن باي يأمره بقتل أحمد آغا، فرجعت المحال، فلمّا وصلوا إلى نواحي قسنطينة تمسّك حسن باي بأحمد آغا فقتله، وفي أيّامه قُتل بوعزيز شيخ الحنانشة[1] بتونس.

ومُلخّص خبره أنّه رجُلٌ داهيةٌ صاحب مَكْر ودهاء لا يقدر عليه أحد، وكان يتلوّنُ في أحواله، فتارة يُوالي حاكمِ تونس ويُعادي صاحب قسنطينة، وتارة يُعادي صاحب تونس ويُصالح صاحب قسنطينة، وكان ذا جُرأة وقوّة بناحية الحنانشة، فإذا خرج عامل قسنطينة إلى ناحيته لخلاص خَرَاجه يبعث له بمطالبه مع خدمته ولا يطمئنّ إليه وهكذا شأنه.

ولمّــا رجع حسين باي من الكاف مسك ولده إبراهيم بن بُوعزيز وسجنه، فقامت قِيامة أبيه، وحلف أن يملأ أرض حسن باي خيلا ورِجالا، ويخلّي أرضه إلى مجّانة؛ ثمّ كتب إلى علي باشا يتودد إليه، ويواليه فقبله علي باشا وأظهر له

1- إحدى القبائل التي كان لها وزنها أيام البايات .

عداوة حسن باي ووعده بإقامة الفِتنة معه، فاستراح إلى ذلك، ولمـــا وصل يونس بن علي باشا بمحلّته إلى الكاف لخلاص مطالبه ركِب إليه بُوعزيز من بلد الحنانشة؛ فلمّا سمِع به يونس ركب في خيله ولقِيه وأظهر الفرح بِملاَقاته وسُرّ به سرورا عظيما، وسار معه قليلا ثمّ بُنيت لهما الأخبِيةُ ونزلوا إلى أكل الطّعام، فوُضِع بين أيديهم فأكل بوعزيز وقام يونس، فلمّا خرج من الخِباء أحاطت خدمته ببوعزيز فمسكوه وأثقلوه بالحديد وجعلوا في عُنُقه سلسلة وبعث به إلى أبيه بتونس، فأمر به فطِيف به على بَغْلةٍ ووجْهُهُ إلى ذَنَبِها ثمّ ضُرِب عنُقه.

وفي أيامه ثارت الفِتنة بين علي باشا وولده يونس، واشتعلت نار الحرب بينهما، واستقلّ يُونس بالقُصبة من تونس داخل البَلَد، وأبوه بِبَاردو[1] خارجها، ووقعت بينهما حروب عظيمةٌ يطول ذكرها، ثمّ فرّ يونس هاربًا إلى أن وصل إلى تبِسةَ[2]، وكتب إلى حسن باي بقدومه إلى تبِسة، فبعث حسن باي جيشا عظيما إلى تبِسّة أتى بيونس فأكرمه حسن باي ورفع قدره وتلقّاه بنفسه وأظهر السرور بقدومه، فدخل قسنطينة عام خمسة وستين ومائة وألف (1165هـ/1751 – 1752) واظهر بها أُبّهة ملوكية من

1- إحدى ضواحي تونس من الناحية الغربية .

2- مدينة جزائرية تقع على الحدود التونسية من شرق الجزائر .

المماليك والخدم والمراكب مِمّا يدلّ على عِظَمِ شأنه ولا يوجد إلاّ عند الملوك، وبقي كذلك إلى أن تُوفِّي أشجي حسن باي سنة سبعة وستين ومائة وألف (1167 هـ /1753 – 1754).

– ولاية حسن باي أزرق العينين

وتولّى مكانه حسن باي أزرق العينين[1] فحجر على يونس وقطع من يدخل إليه من الوفود الواردين عليه من عمالة تونس وغيرها، وجعله كأنّه مَسجون، ثمّ مات محمد باشا بالجزائر، وتولّى مكانه علي باشا بارمقسيس[2]؛ وهو خال حسن باي أزرق العينين فارتفعت منزلته عنده وعلت كلمته وقويت العداوة بين علي باشا صاحب تونس وعلي باشا صاحب الجزائر. وكان محمد باي ولد حسن باشا بن علي بالجزائر، ومعه أخوه علي باي وهم بنُو عمّ علي باشا صاحب تونس، وعزم علي باشا صاحب الجزائر على غزو تونس بالمحَال مع أولاد حسين بن علي، فزاد حسن باي أزرق العينين في التّضييق على يونس وسلبه جميع أمواله من الذّهب والسِّلاح والجواهر التي لا قيمة لها[3]؛ والأحجار التي لا يقوم لها وصف ونفى عنه جميع مماليكه وخدمه ولم يترك

1- تولّى الحكم عام 1754 إلى 1756 أنظر العنتري، ص: 57.

2- كنية غريبة.

3- لا بدّ أن تكون مزيفة أو ربّما التي لا تُقدَّر.

معه إلاّ كاتبه ورجلين يخدمانه، وبنى عليه باب داره وترك منفذا يدخل إليه ما يحتاج إليه، ثمّ خرج حسن باي إلى تونس بالعساكر الجزائرية ومعه محمد باي وعلي باي وجدّوا السّير حتىّ وصلوا إلى تونس، وانضافت إليهم أهل بادية تونس في خبر طويل حتىّ تمكّنوا من علي باشا وقتلوه سنة 1169 هـ/ 1756

وتولّى على تونس محمد باي بن علي، ورفع حسن باي قسنطينة خزائن علي باشا حتى نزع حليّ النّساء عليهنّ، وجمع أموالا لا يقوم بها ملك ثمّ رجع إلى بلده، فلمّا وصلها حصل له مرض كان فيه أجله فمات.

- ولاية أحمد باي القُلّي

وتولّى مكانه أحمد باي القُلّي[1] جدّ الحاج أحمد باي[2] الذي أخذ الفرانصيص البلد من يده وانضمّ إليه أحمد يونس باي وولد عمّه محمود بن محمد باي؛ وكان أحمد باي رجلا عاقلا صالحا فرقّ لهما وظهر له كيف يكونان عنده في أمر وَسَعَة، ويونس في سجنه؟ فطلب من صاحب الجزائر إخراج يونس من السِّجن فأجابه وأكرمه ورفعه فوق الغاية وأضاف إليه ولده وولد أخيه إلى سنة سبعة وسبعين ومائة وألف

1- تولى الحكم ما بين 1756 إلى 1771 أنظر العنتري، ص: 61

2- سيأتي التعريف به ؟

1177 هـ / 1763 – 1764 وورَد عليه أمر من الجزائر بأن يردّ يونس إلى السِّجن ويخفي أثره ويظهر أنّه مات، فسجنه امتثالا إلى الأمر وأشاعوا أنّه مات، وبلغ خبر موته إلى كلِّ ناحية. وسبب ذلك على ما قِيل أنّ صاحب الجزائر بعث رسوله إلى حضرة السّلطان مُصطفى خان العثماني[1] بسلانبول، فلمّا وصلها جلس مع الوزير؛ وكان بعض شِيعَة علي باشا الذي قتل بتونس. ذُكر للوزير أنّ أهل الجزائر أخذوا خزنة تونس وفعلوا بها مناكر وسجنوا يونس وَلَد الباشا وأخذوا أمواله التي هَرَبَ بها إليهم، فتكلّم الوزير مع رسول صاحب الجزائر وقال: بلغني أنّكم لمـّـا أخذتم تونس وقتلتم صاحبها علي باشا أخذتم من الأموال ما لا حصر له.

وذكر له شيئا كثيرا لا يملكه سلطان، وأنّكم سجنتم ابنه يونس عندكم، وأخذتم ماله، وقد بلغ هذا مولانا السلطان مصطفى وعاظة، ولم يرض به، وهو مُرسل إلى الجزائر من يأتيه بيونس باي يخلِّصه من أيديكم ويخبره بما ضاع له من مال أبيه فيستوفيه منكم كرها لأنه مال وجاقة[2] أخذتموه ظلما، فلم يزل يتلطف له حتىّ سكن غضب الوزير، ولما رجع الرسول إلى الجزائر أخبر سيده بذلك

1- السلطان مصطفى خان بالآستانة.

2- وجاقة كلمة تركية... بضمّ الواو تُستعمل بمعنى حكومة الجزائر التركية.

فارتاع وخاف وصول قبجي[1] باشا في طلب يونس فعندها أشاعوا موت يونس، وأبقوه مسجونا لا يعلم به أحد ولم يزل في سجنه إلى سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف (1182هـ/ 1768 - 1769م) وقعت مشاحنة بين علي باشا صاحب تونس وقد تولىّ بعد أخيه محمد باشا الذي أقعده الجزائريون، وصاحب قسنطينة أزرق عينه، وبين أحمد باي، أراد أحمد باي أن يكيد صاحب تونس وقد مات الذي أمر بسجنه، وتولى مكانه محمد باشا بالجزائر فطلب منه أحمد باي صاحب قسنطينة أن يُخرج يونس من السجن فأمره بذلك فأخرجه وأكرمه إكراما زائدا، وأذِن له في الركوب والخروج ليراه الخاص والعام، وكتب إلى صاحب تونس بشأنه يغيظه بذلك فكان من حكم الله أن مرض يونس بعد خروجه من السجن ومات.

وفي أيام أحمد باي كانت واقعة فليسة المشهورة وذلك أن جبل فليسة وبني عباس خرجوا عن طاعة السلطنة وقطعوا طريق الجزائر فلا يمرّ بهم شيء من جانب التُرك إلاّ أخذوه، وقتلوا رجاله، فخرج أحمد باي بمحلتِه ودائرته من قسنطينة، وخرجت محلّة من الجزائر واجتمعوا بفليسة، وتصاحت[2] عليهم أهل جبال تلك الناحية من برابر زواوة

1- قبجي بفتح القاف وكسر الباء كلمة تركية معناها سفير، وسمي به هذا الباشا.

2- تصاحت: هكذا بالأصل وصوابه تصايحت عليهم.

وغيرهم وقاتلوهم قتالا شديدا كانت الغلبة للقبائل ومات من الأتراك عدد كثير، وانهزم أحمد باي وصاحب محلّة الجزائر، ولم ينج إلاّ القليل من أهل المحلتين ،وفي سنة خمسة وثمانين ومائة وألف (1185هـ=1771 - 1772م) مات أحمد باي وتولىّ مكانه خليفته صالح باي، وحسنت أيامه وبلغ ما لم يبلغه من هو أكبر منه من ولاة الجزائر، وولاة تونس، وجمع ما لا يجمعه غيره، وبنى جامع سيدي الكِتّاني، ودياره بالشارع، وغرس البساتين المعتبرة، وكانت له اليد العليا على صاحب تونس وغيره، وبنى القنطرة، جلب لها المهندسين من بلد النصارى وأنفق عليها أموالا عظيمة، وعمر الوطن وسعدت الناس في دولته[1] ودام نحو اثنين وعشرين سنة (22 سنة) وأخباره مشهورة، وصدقاته مأثورة، وكان حسين ولد عجشي حسن بوحنك بداره بقسنطينة، ويعرف بحسين باشا، وله من الحرمة والمبرّة ما لا يبلغه وصف حتىّ أنّ من قتل أو فعل جريمة وهرب إلى درب حسين باشا لا يتعرّض أحد. ولا يعاقبه صالح باي، فهرب إلى الجزائر، فبعثه صاحبه الباشا إلى مليانة وأسكنه بها ثمّ

1- من مآثر صالح باي تجديده لمرسى سكيكدة التي عادت مرسى تجاريا كبيرا بين الجزائر وغيرها من الأمم الأجنبية (أنظر الأخبار المبينة ص 32) ومنها أيضا إلحاقه لتوقرت ونواحي الصحراء بالشمال وتوحيده للقطاع الشرقي تحت حكم واحد كمساهمة منه في توحيد القطر الجزائري توحيدا كاملا وقاه من آفات التمزق والشتات. أنظر تفاصيل أكثر عن صالح باي ، العنتري، ص:62 — 65 .

كثرت الوشاة بصالح باي عند صاحب الجزائر فعزله وولّى مكانه إبراهيم بوصبع ، وكان إبراهيم هذا قائد الزمالة[1] لصالح باي وأحد كبراء دولته وله وجاهة بالجزائر ومحلّ عظيم عند كُبراء الدّولة ،ولمّا عزله صالح باي عن الزمالة تخوّف منه وذهب إلى الجزائر وتولّى قيادة سباو[2] ، ولما ولاّه صاحب الجزائر بقسنطينة تكلم علي حسين باشا المتقدم، وكان بينهما صهر متزوجين بأختين: بنتي الحاج بن ڤانة شيخ العرب، وأختهما الثالثة متزوجة بالخزناجي بالجزائر فبعث إليه إلى مليانة، وجعله خليفته، وخرج إبراهيم باي من الجزائر ومعه عمراوة قوم صبايحية سباو، ولقيه أولاد مقران بقومهم من الحشم أهل مجانة، ومشايخ العربان في جيش كبير، وصالح باي ليس له علم إلى أن وصل إبراهيم باي إلى جبل الشطابة[3]، سمع صالح باي، فأزعجه الأمر، وركب ونادى المنادي الجهاد، النصارى وصلوا، فوقعت هيعة في البلد وخرج صالح باي في خيله على باب القنطرة، ثمّ ظهر له أن يأتي إلى المحلّة بوادي الرّمل،

1- الزمالة: الخيالة وتجمع على زمول وكانوا فرسان باي قسنطينة يستوطنون سهول عين مليلة القريبة من مدينة باتنة.

2- سباو: كلمة تطلق على منطقة يلاد القبائل الكبرى تقع على ضفافي الوادي المسمى بهذا الاسم وهو ينبع من جبال جرجرة ويصب بالجنوب الغربي من مدينة دلس. وكانت ولاية القبائل بالعهد التركي في برج سباو القريب من ذراع بن خدّة ودِلّس.

3- يقع هذا الجبل في الشمال الغربي لمدينة قسنطينة ولا يزال يحتفظ بهذا الاسم.

فلمّا وصل إليها نزل بِخِباء الجراح، والجراح عندهم خباء اتّفقت العساكر على أنّ من هرب إليه لا يَصله مكروه من حَاكم. ولمّا أشرف إبراهيم باي على المحلّة سار إليها، ونزل علي آغا المحلّة واجتمع الدّيوان وقرؤوا ظَهير[1] الباشا يأمر بطاعة إبراهيم باي، وتكلّمت الطّبول على عادتهم، وبعث إبراهيم باي فأتاه ومعه العسكر فأمّنه ولاَطفه وقال له: إنِّي أخوك وليس بيني وبينك إلاّ الخير فعليك الأمان التّام إن شئت أن تبقى معي في قسنطينة مُعَظّما مُكَرّما، وإن شئت رفعت أموالك وحريمك وأولادك وذهبت إن شئت إلى الحَرَمين الشّريفين، أو إلى أيِّ بلد شئت؟ وَرَكِب إبراهيم باي، وصالح باي[2] معه إلى أن دخلوا إلى قسنطينة؛ فأمّا صالح باي فذهب إلى داره بسُوق العصر[3]، وأمّا إبراهيم باي فنزل بدار الإمارة؛ ثمّ إنّ صالح باي لم يرض بهذا فتكلّم مع خَوَاصِّه سِراً من الأتراك والمماليك الذين بدارِ الإمارة واتّفقوا على قتل إبراهيم باي ليلا، فلم يبت إبراهيم باي إلاّ ثلاث ليالٍ، ولمّا كانت اللّيلة الرّابعة، ومضى جزء من اللّيل، اجتمعت خواصٌ صالح باي بلا حَرَسٍ وقصدوا دار الإمارة فَفَتح لهم المماليك الأبواب ودخلوا إلى إبراهيم باي وذبحوه

1- يشبه معاهدة بين طرفين أو فرمان بالتركية.

2- توجد تفاصيل أخرى عن مؤامرة صالح باي في كتاب العنتري، ص: 6' – 65 .

3- حي من أحياء بايات قسنطينة يوجد قُبالة القصبة .

ووضعوا السّيف فيمن أتى معه[1] حتىّ جرت الدِّماء بالأَزِقّة، واصبح صالح باي بِدار الإمارة وفرّق الأموال على العساكر، وصرح بخروجه عن طاعة الجزائر، وأوصى العساكر أن يتحَامَوْا أهل البلد فلاَ يَقْربوهم بإذاية ولا مكروه، ونادى مُناديه في البَلَدِ: يا أهل البلاد افتحوا أسواقكم، وبيعوا واشتروا لا خوف عليكم وإنّما نحن مع بعضنا بعض، وأنا خير لكم ولا عليكم من الجزائر، وكلاما مثل هذا.

ولما مات إبراهيم باي ركب رجل من أهل مَخْزن قسنطينة وأسرع السَّير فدخل على الباشا بالجزائر وأخبره بموت إبراهيم باي، وبنِفاق صالح باي فقام الباشا وقعد وكاد أن يقتل نفسه، وغضِب وأمر بالمدافع فجُرّتْ، وبالأخبِية فخرجت، وبالعساكر والخيل، وقال: أذهب بنفسي إلى قسنطينة وأهدِمها حجرا حجرا، فلم يزل أرباب دولته يسكِّنونه حتىّ زال بعض غضبه، وقالوا له: على أيِّ شيء تشقى جيوشك وعساكرك وتُفِرّق خزائن أموالك في شيء هو أسهل الأشياء وأيّ حاجة صالح باي، فاكتب ظهيرا بالولاية لحسن باشا خليفة إبراهيم باي، وكان بالجزائر خلَفه إبراهيم باي ليأتي بالحريم بعده؟ فبعث الباشا إلى حسن باي وكساه الخِلعة وولاّه على قسنطينة، فخرج

1- أي أجهزوا على من كان برفقته.

مسرعا؛ وكان بينه وبين المقَارْنية[1] صهر، وبينه وبين شيخ العرب كذلك. فلمّا وصل إلى المقارنية نهضوا معه بجميعهم وعامّة خُدّامهم. وبعث إلى شيخ العرب فَلقيَه بجنود العُربان، وجمع الدّوائر وأهل البادية حتىّ اجتمع عليه جيش عظيم، وسار وبلغ خبره صالح باي، فجمع العساكر عليه بِدَار الإمارة والتمس النُّصْرة من أهل البلد فلم يجيبوه إلى ذلك، ولم يرضوا بالخروج عن طاعة الجزائر، ووقعت فتْنة عظيمة في البَلَدِ وانحاز الأتْراك إلى صالح باي. وبات حُسين باي قُرب قسنطينة، ومن الغَدِ أصبح بجنوده قُرب المحلّة بواد الرّمل، وبعث إلى آغا المحلّة والدّيوان بظَهِير الولاية فقرؤوه على من بالمحلّةِ من الكِبار، وقال لهم: إن كنتم في طاعة الجزائر والوِجاق فيها ونِعمت ،وإن خرجتم على الطّاعة وأغريت بكم العرب فلا يبقى أحد منكم إلاّ قتلوه.

ثمّ إنّ الأتراك راسلَ بعضهم بعضا وتلاموا[2] في الخروج عن الطّاعة، وجعلوا يتسلّلون على صالح باي حتىّ لم يبق معه إلاّ القليل.

فعند ذلك أتَاه الشّيخ سيدي عبد الرّحمان الفـڤون[3]، وهو إذّاك شيخ البلد وصاحب مَبَرّةِ الولاة التي جعلوها له،

1- إحدى القبائل المشهورة وكانت لهم ثورة على فرنسا تعرف بثورة المقراني .

2- الأصل وتلاوموا .

3- كالعادة فعائلة بني الفڤون هي من يعود لها فضّ النّزاع .

فخاطب صالح باي وقال له: اذهب معي إلى داري وأُكاتب عليك الباشا فإنّه لا يَخفر ذمّتي، واذهب أنا وأنت إلى الحجّ. فأطاعه وخرج معه وذهب من كان معه في حال سبيله. فلمّا وصل إلى قُرب داره وجد الدّيوان؛ أعني دِيوان القَصَبَة فمسكوا صالح باي فالتفت إلى الشّيْخ وقال له: غَدَرْتَ، فأجابه: الغدرُ سَبَقَ منك. فيك ولا في أهل البلد. وذهبوا به إلى القَصَبَة فخنقوه، وبعثوا بموته إلى حسين باي[1] فعند ذلك نزل إلى المحلّة على عادة الوُلاّة ودخل قسنطينة وتمّ له الأمر.

وهذا ما تيسّر جمعه، والله تعالى أعلم، كمل بحمدِ الله تعالى وحُسن عونه تمّ وبالخير عمّ.

1- هكذا كانت نهاية صالح باي الذي صارت ميتته أسطورة بقسنطينة وأغنية تردّد إلى يومنا هذا في قصائد المالوف ومن أشهرها " قالوا العرب .. قالوا أخ ...بعود له الفضل في إصلاح جسر باب القنطرة كما جمّل حي سيدي الكتّاني وخصص لليهود ما يعرف اليوم بالشارع وتقلص وجودهم من حومة العرب بباب الجابية أو السويقة وظهرت إلى الوجود حومة رحبة الصوف والشارع الرئيس الممتد من بين باب القنطرة وباب الوادي لكن أيامه الأخيرة كانت ظلما وعدوانا كما يقول المؤرخ العنتري.

ترجمة العالم العلاّمة الدرّاكة الفهّامة

الشّيخ فتح الله[1] رحمه الله تعالى آمين

بسم الله الرحمـــن الرحـــيم

فنقول: هو العالم العلّامة المــُحقق المدقّق، وُلد بالشّام ثمّ انتقل إلى مصر هو وإخوته ووالده وعمّه، وأصل نسبه شريفا من ذُريّة علي باري، وكان حنفيّ المذهب هو وإخوته المذكورين، وكان الشّيخ المذكور ربع القامة، متوسّطا بين النّحولة والسمن، غزير الشّعر، أكحل الحواجب والعينين. ثمّ انتقل من مصر إلى الجزائر ومكث بها مُدّة ونزل في دفتر الباشا لأجل الرّاتب لأنّه حنفيّ المذهب. ثم انتقل من الجزائر إلى قسنطينة قبل دولة صالح باي وأقام بها إلى أن تزوج بها وبقي بها إلى أن لَقِي الله تعالى.

وصَار يُدرِّس العلم بها: الفقه والحديث وعلم العربية وعلم الفلك؛ لأنّه كان عالما به كثيرا، وعالما بالجدول في أسرار الحروف. وكان عارفا بصنعة الكشمير[2] وصبغة الوانه، وكان عارفا بكيفية تقطير أنوار الزّهور، كالورد والياسمين إلى غير ذلك... وكان خطيبا بجامع القَصَبة، ثمّ

1- هذه الترجمة للشيخ فتح الله ورد ذكرها في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر وخلت منها مخطوطة الرباط بالمغرب ومخطوطة المدرسة.

2- الكشمير هو شبيه بالشملة العادية التي تُلفُّ على الرؤوس.

بعد زمان رجع خَطيبا بجامع سيدي الكتّاني[1]، وبقي به خطيبا إلى أن تُوفي رحمه الله تعالى.

وكانت بيده مدرسة جامع سُوق الغزل[2]، يدرس بها العلم إلى أن توفي رحمه الله تعالى. وتولّى مُفتيا على مذهب السّادات الحنفية مدّة من السنين، ثمّ بعد ذلك ناظِراً مُدّة عامين، ثمّ بعد ذلك تولّى قاضيا على المذهب المذكور وبقي مُتولّيا للقضاء إلى زمان أحمد شاوش القبائلي[3]، وقضيّته مع أحمد شاوش المذكور: أنّ أحمد القبائلي قام بالعسكر على أحمد آغا وعلي باي وقتلهما ورجع باي في قسنطينة من غير إذن الجزائر وأراد ان يتوجّه إلى الجزائر ليرجع بها باشا وافسد الخزنة وأعطى المال للعسكر، ثمّ ظهر له أن العسكر خان وندم على الفساد، فندم أحمد شاوش القبائلي المذكور ولم يُظهر ذلك للنّاس، وظهر لا ينال شيئا حيث فعل لهذا الفساد، وقتل باش آغا وعلي باي، فبعث إذّاك إلى الشّيخ المذكور وقال له: تكتب إلى الباشا بالجزائر وتقول: إن أحمد شاوش القبائلي ما فعل هذا الفعل إلاّ بإذن أهل البلد والعسكر. فقال له الشيخ المذكور: أنا لا أقدر أن أكتب على أهل البلد الأمر الذي لم يأذنوني فيه ولم

1- يقع هذا المسجد بسوق العصر

2- أحد المساجد أيام الأتراك .

3- توفي أحمد شاوش القبائلي قتيلا بقسنطينة سنة 1263 هـ الموافق 1808 / 1809.

يحضروا في فعله، ولو كنت عاقلا ما فعلت هذا الفعل الذي فعلته. وخشن معه الكلام كثيرا. فأجابه أحمد شاوش القبائلي المذكور بأن قال له: يلزمك تخرج من بلادي وتمشي إلى عنّابة، ولا تبقى في بلدي ولو ساعة. فخرج من البَلَد وبعث في إِثره اثنين من المخَازْنِيَّة وقال لهم: لابدّ تقتلوه في الموضع الذي تلحقوه به. فلحقوا في إِثره ببلد فجّ بُوغارب[1] وقتلوه هناك، ودُفن به وتوفيَ رحمه الله تعالى آمين.

– قضية أحمد القبائلي[2]

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. قال الشيخ العلّامة الخطيب المدرس المفتي السيد الحاج أحمد المبارك حفظ الله مقامه آمين.

هو تُركي كان شاوش العسكر وحاكمهم وتزوج بقسنطينة، وكانت العساكر تُحبّه وتأتيه إلى داره، وعظم ذكره في البلد وشاع أنّه يبحث على ولاية قسنطينة فأظهر له علي باي العداوة، فعند ذلك هرب إلى القبائل وبقي عندهم مدّة، فهذا سبب تسميته بالقبائلي، وكانوا في ذلك

1- تقع في الطريق الرابط بين قسنطينة وعنابة .

2- ترجمة أحمد القبايلي غير موجودة في مخطوط الرباط بالمغرب وغير موجودة في مخطوطة المدرسة.

الوقت عازمين على القدوم إلى تونس بالمحال وآلات الحرب، وخرج حسن آغا من الجزائر بالعساكر والأموال في قوة عظيمة، وخرج علي باي من قسنطينة إلى لقائه واجتمعوا في جمع عظيم وعُرّام[1] جسيم، ولمّـا وصلوا إلى قُرب قسنطينة تركوا المحلّة بعيدا من البلد، ودخل علي باي وحسن آغا إلى البلد لصلاة الجمعة ،وكان أحمد القبائلي سرّحه علي باي والآغا وأعطوه الأمان فجاء معهم، وفي تلك الأيام تكلم مع العساكر خفية ووعدهم بأن يعطي لكل مائة محبوب ذهبا فأجابوه واتفقوا على قتل علي باي وحسن آغا.

فلمّا كان يوم الجمعة دخل الباي والآغا إلى جامع سوق الغزل وصلوا فلم يشعروا إلاّ والعسكر قد ملأوا الجامع وخرجت الناس هاربة وجعلوا يضربون المكاحل داخل الجامع، فأمّا حسن آغا فإنّه خرج ودخل إلى دار قرب الجامع، وأمّا علي باي فإنّه ظنّ أنّ حسن آغا هو الذي مكر به فسلّ سيفه وخرج فلقيه شاوش عرب من خدّام الآغا عند باب الجامع فقتله علي باي ثمّ خرج فإذا بالعساكر عند الباب واقفة فرجع إلى صحن الجامع وخرج على باب آخر ودخل إلى دار نعمان وطلب من أهل الدار أن يكتموه، فخرج مصطفى خوجة الذي رجع بعد ذلك آغا بالجزائر ومشى إلى دار الباي. ودخل إلى أحمد القبائلي وهو على كرسي

1- جيش عرمرم.

الملك والعساكر حوله فقبّل يده وبارك له وأخبره بعلي باي، فجاءت العساكر إلى دار نعمان ووقفوا بالأزقّة ودخل مصطفى خوجة إلى علي باي فأخرجه من دارهم، وكان مصطفى هذا مع نعمان في دار واحدة لأنّه زوج ابنته، فلمّا خرج علي باي تكلّم عليه البارود من العسكر فانجرح ودخل دارا هناك ولم يقدر أحد من العسكر أن يدخل عليه لشجاعته وقوّته، فإذا دخلوا رفع سيفه وتكلّم فيرجعون هربا وبقوا كذلك إلى أن صعدوا أعلى السقف ونقبوه ورموا عليه فمات. وأمّا حسن آغا فأخرجوه حيّا وأوصلوه إلى أحمد القبائلي فأمر به فقطّعوه بالسكاكين ثم تكلّمت المدافع وضربت الطبول وخرج البرّاح[1] ينادي في الأزقة بالعافية وحياة رأس السيد أحمد باي، وعمد إلى الخزائن التي عند علي باي، والتي جاءت من الجزائر وأعطى للعسكر ما وعدهم به، وأعطى لجميع من هو مكتوب في الوجاق مئة محبوب، وأعطى للعرب ومشايخ القبائل وغيرهم وقتل آغا علي باي وكاتبه وجعل يخرج كلّ يوم إلى المحلّة فيتكلّم على رأسه أربعون مدفعا وإذا دخل كذلك وحين يدخل ويخرج يرمي للناس الواقفين المحبوب والدراهم ،وجعل أحمد الطوبال خليفة عليه، ويوم مات علي باي خرج خليفته الحاج أحمد الوهراني هاربا وستره الله إلى أن وصل إلى الجزائر. أخبر

1- البرّاح كلمة عامية جزائرية يُراد بها المنادي الشعبي الذي يخبر النّاس في الأسواق بجديد الأخبار والأحداث.

أحمد باشا بالقضية وأخبره أن العساكر كلّها في طاعة أحمد القبائلي فتحيّر الباشا وخاف على نفسه أن ترجع المحال والعساكر إلى الجزائر ويفعلون به كما فعلوا بعلي باي وحسن آغا، فعند ذلك كتب أمرا إلى أحمد طوبال بالولاية على قسنطينة وبعث له قفطان الولاية وكتب إلى الدائرة والعرب أن ينصروه وأن يقتلوا عساكر الترك القائمين مع القبائلي الذي خرج بالمحلّة يريد الجزائر ليقتل أحمد باشا ويرجع في موضعه، ونزل بالمحلّة والعساكر في بير البـڤيرات، وبقيت محلّة الشتاء بواد الرِّمل، وحين خرج ترك أحمد الطوبال في البلاد يقضي أموره ويلحقه، فجاء الأمر بالولاية فخرج ومعه أهل البلد والأتراك من أهل قسنطينة إلى المحلّة بواد الرّمل فلبس القفطان هناك، وكان كبار محلّة الشتاء لم يرضوا بما فعل القبائلي، ورجع إلى البلد فتكلمت عليه المدافع والطبول ونادى البرّاح بالعافية، وخرج من البلد معه الدائرة والمخازنية، ولما سمع أحمد القبائلي تحيّر وأحاطت به القوم وكثرت العرب عليه وجعلوا يقتلون الأتراك، وجعل الناس يهربون مثل المكاحلية والخدمة إلى أن بقي هو وعسكره لا غير. فلمّا راى ذلك رجع إلى المحلّة التي بواد الرِّمل. واجتمعت الأتراك وتحدّثوا فيما بينهم وظهر لهم أن العرب قامت على ساق، وأنّهم لا قدرة لهم على العرب وأيقنوا بالموت والهلاك، فعند ذلك قاموا إلى أحمد القبائلي فمسكوه

وخنقوه وطلبوا العفو من طوبال باي فعفا عنهم ورجعت العربان إلى أهلها وبقي أحمد الطوبال باي إلى أن مات، ومدّة ولاية القبائلي خمسة عشر يوما ،ولا يبقى في ملكه إلا الله تعالى انتهى.

الفهارس

فهرس الأعلام

الهمزة

الباء

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الزاي

السين

الشين

العين

الفاء

القاف

الكاف

الميم

الياء

فهرس الأماكن

الهمزة

الجيم

الحاء

الدال

الراء

السين

الشين

الصاد

الطاء

الفاء

القاف

الكاف

الميم

العاء

النون

الواو

التعريف بمحقق الكتاب

هو الدكتور عبد الله حمادي خريج جامعة مدريد المركزية (Complutense) بإسبانيا، مختص في الأدب الإسباني واللاتينو- امريكي، يعمل أستاذا لمادّة الأدب بجامعة منتوري قسنطينة، ويتولى حاليا رئاسة مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، أحرز على جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري المخصصة لأفضل ديوان في الشعر العربي وذلك في دورة أكتوبر2002 على ديوانه الشعري "البرزخ والسكين"، رئيس سابق لاتّحاد الكتاب الجزائريين، ومدير سابق للمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954...

شاعر ومترجم وباحث أنجز العديد من الدراسات الأكاديمية المتنوعة والمنشورة في دور النشر الجزائرية والعربية والدولية نذكر منها:

ـ الدواوين الشعرية:

1ـ الهجرة إلى مدن الجنوب، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، SNED الجزائر، 1981.

2ـ قصائد غجرية، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، ENAL الجزائر1983.

3ـ ديوان « Comverso con el olvido » (حوار مع النسيان) باللغة الإسبانية، نشر La Buardia مدريد 1979، وطبعة ثانية، منشورات جامعة قسنطينة، 2004.

4ـ تحزب العشق يا ليلى، مع مقدمة تنظيرية "لوازم الحداثة والمعاصرة للقصيدة العمودية"، نشر دار البعث بقسنطينة، 1985.

5ـ البرزخ والسكين، نشر وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998، وطبعة ثانية جامعة قسنطينة2001، وطبعة ثالثة دار هومة، الجزائر 2004.

6 ـ أنطق عن الهوى، نشر دار الألمعية الجزائر2011

الدراسات الأكاديمية(كتب منشورة متدلولة)

7ـ غابريال غارسيا ماركيز رائد الواقعية السحرية، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، ENAL الجزائر1983.

8ـ اقترابات من شاعر الشيلي الأكبر بابلو نيرودا، نشر مشترك الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، SNED بالجزائر والدار التونسية للنشر والتوزيع 1985، ونشر مشترك بين الدار التونسية وديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1986.

9ـ مدخل إلى الشعر الإسباني المعاصر، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1985.

10- دراسات في الأدب المغربي القديم، نشر دار البعث بقسنطينة، 1986.

11- الموركسيون ومحاكم التفتيش في الأندلس(1492-1616) نشر مشترك المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر والدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس1989.

12- مساءلات في الفكر والأدب، نشر ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1994.

13- الحركة الطلابية الجزائرية 1871-1962 منشورات الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين 1994 وطبعة ثانية منقحة ومزيدة نشر المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996.

14- تحفة الإخوان في تحريم الدخان لعبد القادر الراشدي القسنطيني، دراسة وتحقيق، نشر دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان 1997.

15- أصوات من الأدب الجزائري الحديث، نشر جامعة قسنطينة 2000 وطبعة ثانية نشر دار البعث بقسنطينة، الجزائر 2001.

16- الشعرية العربية بين الاتّباع والابتداع منشورات جامعة منتوري قسنطينة 2001 وطبعة ثانية نشر اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر 2001.

17- مختارات من الشعر الجزائري الحديث، منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت2001.

18ـ أندلسيات (غرناطة والشعر)، نشر دار البعث بقسنطينة، الجزائر2004.

19ـ الأندلس بين الحلم والحقيقة، منشورات مخبر الترجمة، طبع دار الهدى عين مليلة، الجزائر 2004.

20ـ الشعر في مملكة غرناطة (La poesiaen el Reino Nazari de Granada)

1232-1492(باللغة الإسبانية) نشر مؤسسة سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2004.

21ـ فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار لابن هذيل الغرناطي تحقيق وتقديم وتعليق، نشر مؤسسة سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2004.

22 ـ رحلة محمد الزاهي الميلي من باريس إلى قسنطينة 1938 نشر مطبعة البعث بقسنطينة/ الجزائر 2004 وطبعة ثانية نشر مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة 2004 .

23ـ ديوان أحمد الغوالمي، تحقيق وتقديم، نشر وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر2005.

24ـ تَفُنَسْتِ، رواية، نشرالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر2006.

25- شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي الزاهري، إعداد وتقديم في جزأين، نشر دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر 2007.

26- نُفَاضَةُ الجِراب(تأملات في الأدب والسياسة)، نشر ديوان المطبوعات الجامعية2008.

27- سيرة المجاهد خير الدين بربرويس، تحقيق وتقديم وإعداد نشر دار القصبة، الجزائر 2009.

28 - تاريخ بلد قسنطينة لابن العطار، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور عبد الله حمادي. نشر دار الفائز قسنطينة 2011 .

29 - الدر المنظم في المولد النبوي المعظم للإمام العَزَفي تقديم وتحقيق الدكتور عبد الله حمادي.

فهرس موضوعات الكتاب

AVERTISSEMENT

L'histoire de Constantine a été écrite en arabe par deux constantinois musulmans : Salâh' AL-ANTARI et Chaïkh al-Hâdj Ah'med Ben AL-MUBARAK Ben Al-ATTAR. La première d'un style passablement fautif confinant à l'arabe dialectal a été publiée à Constantine, en 1846. C'est de la seconde qu'il est question dans le présent ouvrage ; elle a été rédigée vers 1852. Selon toutes probalités.

Le Chaïkh AL-MUBARAK est originaire de Mila, localité des environs de Constantine, où il vit le jour en 1790. Il passa presque toute sa vie à Constantine, où il mourut le 5 octobre 1870, correspondant au 1er mardi du mois de radjab 1287, de l'hégire.

Deux auteurs français ont également écrit l'histoire de la capitale de l'Est algérien : E. VAYSSETES qui a laissé une Histoire de Constantine sous les Beys (1535-1837), publiée à Constantine en 1869 ; et Ernest MERCIER, une Histoire de Constantine, imprimée dans cette ville en 1903.

L'ouvrage du Chaïkh AL-MUBARAK ne semble pas avoir été connu de ces deux auteurs, tout au moins ne citent-ils pas.

Nous avons jugé qu'il pouvait fournir quelques renseignements intéressants. Son style est généralement d'une lecture agréable. Il méritait d'être mis à la portée des lectures, d'autant plus qu'il n'existe pas, à notre connaissance, de monographies en arabe sur des villes algériennes.

Nous avons fait précéder le texte d'une longue introduction en langue arabe et pour être utile au lecteur nous avons donné un certain nombre de notes très concises. Il est à remarquer que notre auteur emploi assez souvent des mots ou tournures de l'arbre dialectal et la date des événements est parfois omise.

Cette chronique a été traduite en français par Alfred DOURNON, ancien directeur de la Médersa de constantine.

Dans la revue Africaine Vols.57 2ème trimestre 1913 pp 268-305.

Professeur Abdallah HAMMADI

Email: hammadi.abdallah@yahoo.fr

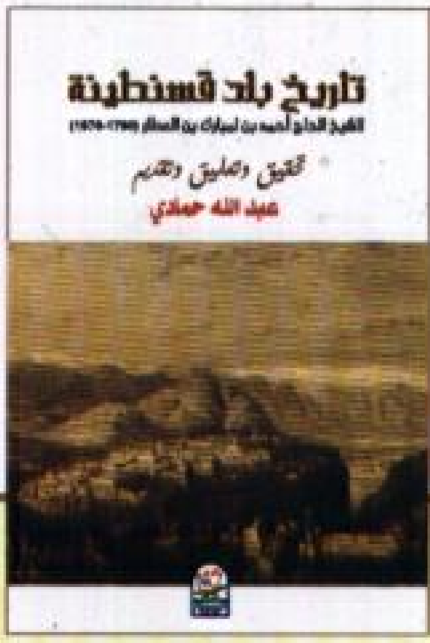
AL-HADJ AHMAD BEN AL-MUBARAK BEN AL-ATTAR

TA'RIKH BALAD QUASANTINA

(Histoire de Constantine)

Edition critique Professeur HAMMADI Abdallah

Achevé d'imprimer sur les press Dar El-Faïz
Constantine/Algérie 2011



إنّ قسنطينة المدينة والحضارة والتاريخ تحتاج إلى أكثر من جهد، فهي متشعبة ضمن حقول معرفية متنوعة، فهي حاضرة في الأدب بشقيه الشعري والسردي، وحاضرة في الفنون بشقيها الموسيقي والتشكيلي، وحاضرة في التاريخ بشقيه الثابت والمتحرّك، وحاضرة في الوجدان بشقيه العاطفي والعنيف، وحاضرة في الأرض بشقيها المتوغل في أعماق الصخر والمنحوت على ذاكرة الزمان، فهي الماضي والحاضر والمستقبل وما رَسَمَ الإنسان على أديمها وصخورها...

ISBN 978-9947-963-21-0

قسنطينة 2011